مناجاة

تأليف

المحامي حسين عفيف

١٩٣٣

مناجاه

قطع متخيَّلة فى
تسلسل روائى

تأليف

المحامى حسين عفيف

الثمن ٥ قروش صاغ

ملتزمة النشر مكتبة النهضة المصرية
لصاحبها حسن محمد
بشارع المدابغ أمام جريدة الاهرام بالقاهرة

مطبعة د. سباده بمصر

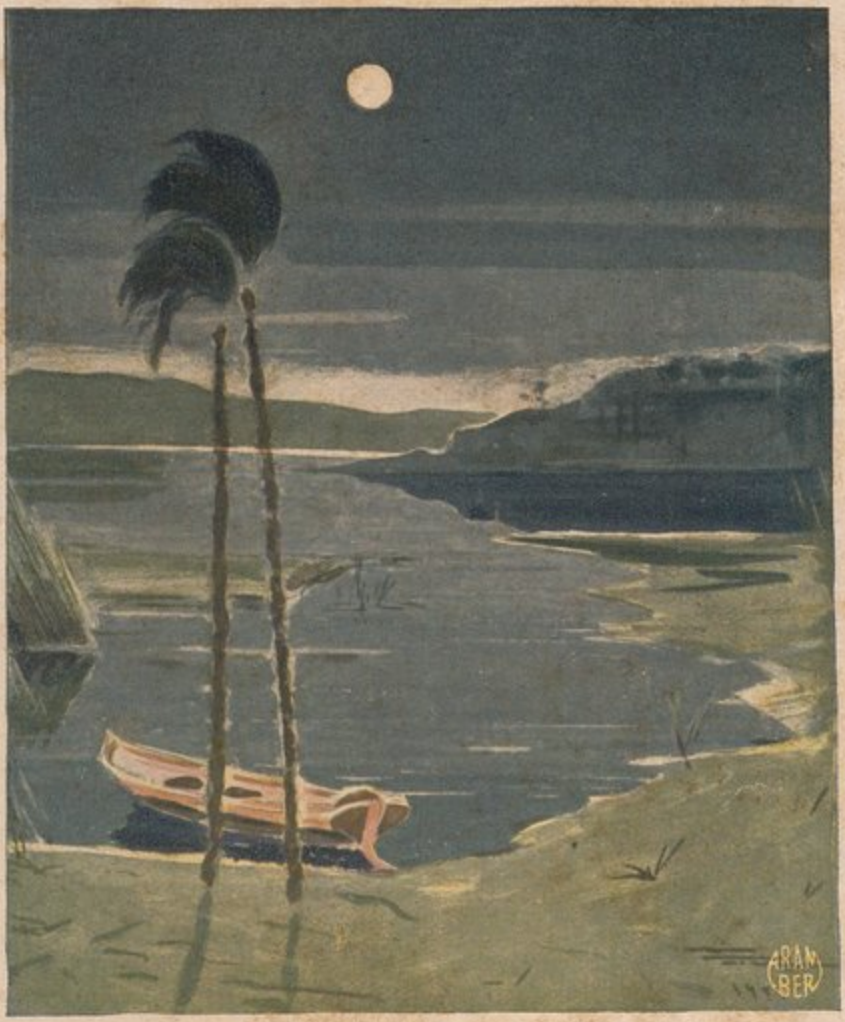

مناجاه

تصوير الرسام
« شعبان زكى »

مطبعة
« بول باربيه »

الإهداء

إلى رعاة الغنم ، أهدي كتابي .

مقدمة

وبعـــد فهذه قطع متخيَّلة ، تشبه فى تسلسلها الرواية ، تتضمن تحليلات عامة ، فى قالب غرامى ، وأسلوب من النثر الشعري .

١

طُموح

ما هويتكِ لذاتك يا حبيبتى وإنما لأنك تحملين قَبَساً من ذلك الجمال الذى أعبده ولا أعبد سواه . وإذْ كان الجمالُ يا حبيبتى موزّعاً بين الحسان فقد وزعتُ ما بين الحسان قلبى .

أنا عالِمَيُّ الذاتِ أحمل الحنانَ لكل حىٍّ ، وأضمر الحب لكل جميل ، وأود لو أن قلبك دَانَ فى الغرام بدينى . فأذا نازعتنا غيرةٌ دفينة فى قلوبنا فلنتوطن على احتمالها النفسَ أو نغسلها على مَرِّ السنين بالدموع .

ولئن خاننا الصبرُ الجميل فجذا الألم يا حبيبتى فى سبيل الطُّموح . مزيجٌ من الحزن والفرح الحياةُ

فلتكن مزيجاً من الدموع والابتسام حياتنا .
وأنتِ يا عينُ انطلقى فى إثْر الجمال بسناه اكتحلى
و بِأَساه ادمعى . ولتكن عواصفَ لا تعرف الخمود
نفوسُنا ، وحاشانا نحن الأحياء أن نخلد إلى الهدوء
فالهدوء الموت .

إن من شرارتىْ السرور والألم ما تَدَفَّقَ فينا
من كهرباء الحيوية ، فليكن من السرور والألم الغذاء
العبقرىّ لأرواحنا .

٢

تقلب

إنك تحملين الجمَّ الكثير من الأغراء ، ما من
هذا يا حبيبتى شك ، ولكننى على الرغم من ذلك
أحمل بقلبى من الحب أكثرَ مما عندك من الجمال .

شدَّ يازرقاءَ العينين مايخفق اليومَ قلبي للسواد من العيون ! خالستَنْني من لياليه شُموسٌ فراح ينبثق من بريقها بريقٌ للصبابة فى قلبي . وعبثاً ما حاولتُ فى سبيل الوفاء أن أقاوم ، فاستسلمْتُ مرغماً ، ولكنني مع ذلك لبثت طول الليل أترنم بهذا الانهزام اللذيذ .

أحائدةٌ أنتِ يا حبيبتي إذَنْ عن الوفاء لمن بدأ بالخيانة عهدك ؟ أجل ، وما كنتُ لألومك فى ذلك فأكون لقلبك البرىء ظلوما . ولكن هل يطفىء الانتقامُ لوعةً فيك للحب متأججة !

ستعصف الغيرةُ بقلبك وقلبي ، وسنسهد الليالى الطوال نذرف الحار الغزير من الدموع ، ولكن أنَّى للقلب الشارد الجموح نحو الجمال أن تستوقفه توسلاتُ الدموع الجارية ! سأحبك ما تردَّدَتْ

فِيَّ أنفاسُ الحياة ، ولكنّ قلبي النزّاع بطبيعته إلى الطمع والحرية سيأبى إلاّ أن يُشبِع أهواءه من دُمَى الجمال المتعددة .

في فؤادي مُتّسَعٌ من الحب على قدر ما في هذه الحياة من حِسَان . فهلاّ أطفأنا يا حبيبتي نيران الغيرة في قلبينا ، ورحنا نهيم بحب الجمال أينما كان متنقلين عابثين كما تتنقل النحلُ الحائمة بين الزهور ! إننا نؤمن بالتنقل في كل شيء ، ولكَمْ تفتننا العيون الزرق والعيون السود في آن واحد ، فلماذا نرضى لأنفسنا بنصيبٍ من الجمال أقلّ مما بقلوبنا من الحب !

لو كان في وسعكِ أن تحوي الجمالَ كله لأوليتُك من فؤادي الحبَّ كله ، ولكننا إذ نفترض في الجمال المُحالَ إنما نرجو من

الحب المستحيل .

٣

غيرة

شتّان بين قُبلتيه على شفتيكِ ونارها فى قلبى ! كان الطريق مقمراً ، وقد اتخذتُ لنفسى مخباً بين لفائف الشجر ، عندما أقبلتما متخاصرين فوددت لو أغمض الموت عينىّ وأنّي لا أراكما .

وما هى إلاّ برهة حتى تعانقتما ، فجرت روحاكما تنسابان الواحدة فى الأخرى ، وقد لمع فى عينيكما من فرط الحياة وميضٌ عجيب . أمّا أنا ، فكانت روحى تنساب أيضاً ولكن نحو الفناء حتى أنني لقد ذقتُ فى تلك اللحظة بعض الموت .

ولقد بكيتُ وأسرفت فى البكاء وعهدى بـ

يا حبيبتى البخيلُ بدمعي . ذلك أنني أنا الذى حرصتُ على جمع القلوب قد عزّ علىّ أن يفلت قلبك من يدى . وحسبتُ فى الأمكان أن أغدر فأضيعَ منكِ وتنى فتبقىَ لي .

أنانىٌّ ما أنتَ يا قلبُ فى الهوى لأنك فيه طمّاعٌ غيور ! فهلاّ افتديتَ بالقناعة نفسَك مخافة أن تتكالب عليك أيدى الهموم فتبلى ! سأضحّى من أجل الغيرة بالطمع وأعود إليكِ تائبًا كيما تعودى لى يا حبيبتى وحدى .

٤

غيرة

أوّاه من غيرةٍ قاتلة فى فؤادى ومِن طمعٍ فيه قاتل !

كلما تعاهدنا على الأخلاص انقاء الألم ساقني نحو الغريب من الجمال جموحٌ ، فإذا لاحت لىَ حسناء غيرك سكنَتْ نفسى الحائرةُ إلى الحنين وأسلمتُ للحب الجديد قلبي .

هيهات أن يخلص للفرد من أخلص للجماعة إلاّ أن يضحّى في سبيل ذلك تلك . إنما الأيثارُ للفرد بالأفراد الجحود ، وأنا حبيب الحسْن أينما كان وحاشاىَ أن أبيع بالجميل الجمال .

٥

استقرار

لمّا رأيتكِ آمنتُ أن الجمال لك وحدك فمنحتُك من فؤادى الحبَّ وحـــدك . وآمنتُ أنما الحبُّ الأيثارُ وأن من أخلص للجماعة لم

يخلص لأحـــد .

لَكَمْ خادعنى قلبى فحسبتُنى قد ذقتُ قبلك الهوى ، فما أن عرفتك حتى أيقنت أن ما كان بى لم يكن حبا وإنما كان نزعةً تلتبس بالحب وليست منه فى شىء .

هى صورتكِ أنت تلك التى كانت مرسومة في خيالى منذ الحداثة . فلمّا أن ضللتُك ضللتُ عن فهم الجمال فرحتُ أهيم بالغيد من كل لون وكنت فى هيامى جَهولاً دَعِيّا .

والآن يا حبيبتي وقد وجدتُك فانى أقسم بجمالك الفريد أن أول عهدى بك هو أول عهدي بالهوى . وأنني لم أكن فيما مضى عالمىَّ الذات وإنما كنت سىء الاختيار .

٦

هدى

أهو طيفكِ أنت ذلك الذي كان يلوح لى في الأحلام من عهد الصبا ! ضالَّتى التى أفنيتُ فى البحث عنها السنين وكنتُ أجهلها وكنت أعرفها !

لكل قلبٍ مِثالٌ من الجمال تائهٌ في عالم الجمال فإن اهتدى إليه هَداه الهوى وإن ضلَّهُ ضل فى الهوى . وقد كنتِ أنت مثالى الذي ابتدَعتْهُ فى الخيال أمانى الفؤاد فجعلتْ منه للجمال آيةً وللحياة الأبية غاية .

لكِ السهاد فى الليل يا حبيتي إذنْ ولك التنهدات وحدك والدموع . هاكِ قلبي خذيه كعهد طيفك به هائماً خافقاً لا تكاد تهجع النار فيه .

والوداع الوداع يا حبيباتى الأوليات فما أنا لكنّ بعد اليوم ولا أنتنّ لى .

٧

النظرة الأولى

لم يكد يمسُّنى سحرُك حتى أصابني منه مَسٌّ من الحب . فلقد نزل بي هواك يا فتاكة اللحظ نزول القدَر . وكانت نظرةٌ ألقيتها ، لم أفِقْ بعدها إلاّ على خفقات قلبي !

وصحوتُ ، فإذا بنور عينيك قد استحال فى الجوانح ناراً ، وورد شفتيك قد غـــدا فى الفؤاد لهيبا !

ليس حبًّا ما أمهل القلبَ أو جمالا ما قاومتْ سناه العيون . ولقد رضينا ما ارتضاه القضاء وفي

سبيل الجمال يا قلبُ ما تلاقى فى الهوى .

٨

الحب المفتعل

لو لم يحبك قلبى لأول وهلة لَمَا صدّقتُه إنْ هو أَحبَّكِ بعد حين . لأنه وإن يكن فؤادى سيخفق ، وأنفاسى ستضطرب ، ونفسى ستستسلم إلى عبث الأحلام ، إلا أن هذه المظاهر وإن انطوت على حب لا يمكن إلاّ أن تكون مفتعلة .

ذلك أنها إذ تقوم لا تقوم على أساسٍ من الاعجاب وإنما على أساس من الألفة ، والحب لا يكون صادقاً إلاّ أن يكون الأعجابُ أساسَه ، لأن الحب ليس إلاّ الأعجابَ قد اعترته حُمَّى .

كم من وجوهٍ نراها فلا نحفل بها حتى إذا

ما ألفناها توسمنا فيها الجمالَ الذي ليست منه على شيء . وما كانت الوجوه لتتغير ، ولكن هي العيون تضللها العادة فتنخدع ، فما أن تدمن النظر إلى شيء حتى تتجرد من أهلية الحكم عليه .

فإذا ما رحنا نتمادى في غرامنا الزائف ونبني على أوهامه القصور ، فياويلنا إذا آن للعين المخدوعة أن تثوب وللقلب الثائر أن يهدأ . إننا إذ ذاك قد نبحث على بقية من الشباب لنُوَقِّع بها أغنية الحب من جديدٍ فلا نجد . وندرك ، ولكن في آخر العمر ، أنْ ليس هناك أثمن من شبابٍ لا يعود في حياةٍ لا تتكرر .

٩

مثلنا الأعلى فى الجمال

إننى إذ عوّلتُ فى حبي على النظرة الأولى ، إنما عولتُ على العين مجردةً عن المؤثرات ، والعين لا تكون صادقةً إلاّ أن تكون مجردة .

وما كان لى يا حبيبتى وبيننا ما بيننا من تمازجٍ وانسجامٍ أن أسمح لنفسى أن تمتحن جمالك ، لأننى وإن أكن لم أرك قبل الآن إلاّ أننى لم أجهلك . لم أجهلكِ لأنك منذ ارتسمتِ فى خيالى كأمنية فقد تمّ ما بيننا التعارفُ ولم يبق إلاّ أننا نتلاقى . فإذا تلاقينا فليس لنا إلاّ أن نتبادل التحية بالقلوب ، ولكن أحداً منا لا يسوغ له أن يسأل الآخر مَنْ هو .

مَثَلُنا الأعلى فى الجمال صورةٌ من تصوير ميولنا وعواطفنا فهو مستقر فى خيالنا منذ القِدم. وهو وإن يكن لا يشمل فى وضوحٍ دقائق الجمال التى نهواها إلاّ أنه يحمـــل منها تضاعيفها وروحها.

وهو يظل فينا غامضًا مزعزعاً إلى أن يلتقى به نظيرُه من الأنسان، فما يكاد ينعكس عليه حتى يُظهر ما خفي من غوامضه ويُقِرّ ما اضطرب من معالمه. فالذي ينطبق من الجمال على مَثَلنا الأعلى، هو ذلك الذى يستطيع أن يُظهره فينا من أول انعكاسة تقع منه عليه، فإذا لم يستطع ذلك فهو ليس مَثَلنا وإنْ أوهمنا فيما بعد بأنه هو.

١٠
وفاء

إنى وربى أنا العابثُ المتقلب أصبحتُ أجد فى الوفاء ارتياحاً ولذة . هى الغدر طبعي فايٌّ بقيةٍ من جمالٍ قد تخلَّفَتْ عن حسْنكِ حتى يكون فيها للقلب السَّطموح مَطْمَع !

أنا مذ تركَّز فيكِ الجمالُ قد ركَّزتُ فيكِ يا منای مطامعى . ولئن يكن قد شاب منى الوفاءَ اضطرارٌ فأن ذلك مما يجعله بالدوام أحرى . ذلك أنه يستمد من تفرُّدكِ بالجمال قابليَّته للخلود .

١١
عبوية

هذا العصفور المرِح الذى يعبث الآن بالغصون

دونك يا حبيبتي رشاقةً وخفة .

إنّ ما انطوت عليه روحُك من معان لَتَتحدث عنها عيناك اللتان تجيدان الكلام بأكثرَ من لسانك الفصيح . وإنك لَمِثْلُ الغزال فى لَفتتك ، ولَتُشبهين الطير فى تألُّق مِشيتك .

يا أخّاذة الحسْن يا من يسبق جمالُك بتوقّده عيونى ، ما أعجب أن يُومض كالبرق لحظُك ، وأن يضيء كالشَّرر اللَّمّاح سحرُك !

كم من مرةٍ حاولتُ أن أتملّى من جمالك فكانت عيونى تعجز عن اللّحاق به فترتد إلىّ وهى أخلى ما تكون منه وأظمأ ما تكون إليه .

لآمنتُ يا حبيبتى أن بيني وبين إدراك نورك ما بين العيون وإدراك البُروق الخاطفة .

١٢

همجية

سمراء سوداء الشعر والعينين ولكنّ سُمْرتها التي تشبه الليلَ تستحيل نهاراً فى فؤادى .

ممتشقةُ القوام كالغصن ، ممتلئةُ الساقين فى استدارة ، يتمنى من يراهما تخطوان على الأرض لو يكون التراب الذي يحظى بوقعهما .

همجيةٌ كالنَّوَر فى شكلها ، عذبةٌ كالأحلام فى روحها . تشبه الطفلَ اللَّعوب سذاجةً ، وتفوق وثَّابَ الطيور رشاقة .

أثار جمالُها الوحشىّ رغبتى ، وحرّك فىّ الحنينَ لفطرتى . فتمنيت لو فررتُ بها إلى منقطَع العمران حيث نحيا بين أحضان البرارى ونرعى فى رُبَى

الأحـــراش الغنم .

نطعم الزادَ من بَرِّيِّ الثمر ، ونفترش الحشائش في مبيتٍ أو سمر . ونأوى إلى النوم لدى مغرب الشمس ، ونهبُّ منه لدى تنفُّس السَّحَر .

وأراها وقد توحَّشَتْ مع الطبيعة فأرسلتْ كالعُشْب الطليق شعرَها وعرَّت من الثياب ساقيها ونحرها ، فيزداد جمالُها فتنةً في عيني وحبُّها لهيباً في فؤادي .

١٣

شوق

ها أنا الآن جالسٌ حيث تقيمين ، وبودي لو قضيتُ حيث أنا العمر كله !

وها أنا أراك من خلال السياج ، وقد

اضطجعتِ على ناضر العُشْب ، تكسرين الجفن كالقمر الحالم ، وتمدين ذراعيك كالفجر المتثائب .

وها أنا أرى سواد عينيك فأعجَبُ للظلام يبعث نورا . وأرى اللحظ فى مقلتيك وقد سقاه الدلالُ فتورا .

وها أنتِ وقد طوَّحَتْ برأسك الأحلام تميلين به إلى الدوحه ... ياليتني كنت الدوحه !

ويَحَك ياسياجُ لِمَ مزَّقْتَ الآن بشوكك وجهى ! ويلاه ، إن الدم يقطر منه فيخضب قيصى !

ليتكَ يا دم لا تنقطع ! وأنت ياجرح ليتك لا تندمل ! لأرى فيكما على الدوام غرامى !

آه ، ما أعذب أن أهب نفسى فى سبيلك ! لقد

أحببتكِ فأحببت الفناء فيكِ لأنى وددت أن أكونك .

١٤

كبرياء

إن فتورَ عينيكِ الذي يُشبه الوَسَنَ قد غيَّبَ في حُلُم الغرام قلبي . ووميضَ ابتسامتك عندما لاح كاد يخطف سناهُ الوهاج بصري . ولهيبَ شفتيك الورديتين كم أحرقَ لمسًا قبلتك فمى !

لا أبالي بكل ذلك فإنى أُحِسُّ لذةَ الحب على قدر ما أُفنِي فى الحب نفسى . ولكن حذار أن تتمادى فى صدودك فإنى وإن بذلتُ نفسى فى سبيل الجمال لن أبذل فى سبيله كبريائى . حياتي قد تكون عزيزةً ولكنّ الكبرياء عندي أعزُّ منها .

١٥

خضوع

رحماكِ يا معذبتي ، إنك قد أذللتِ كبريائي !
ما لِرأسي كلما هممتُ برفعه ألحَّ به الوجد فهوى إلى قدميك !

عجبتُ أنا الأبيُّ فى كل شيء كيف استكانت اليوم نفسي إلى الذل في الهوى ! أحقًّا أن ما بنا من كبرياءٍ وغرور يتلاشى كله أمام عظمة الجمال فإذا بنا نرى السموَّ فى الخضوع إليه ونُحِسُّ الحياةَ فى الفناء فيه !

يا حبيبةً قد سما فوق العالمين جمالُك ، ويا أمنيةً تطيش أحلامُ القلوب حيالُك ، دعيني أذرف عند قدميك الدموع عَلَّني أستعيض عن لذة الآباء

فى الحب لذةَ الهوان فيه . ولا تضنِّي علىّ بما يفرضه علىّ من الخضوع جمالُك ، واذكري أنك جرحت كبريائى فلا تجرحي ذِلَّتى .

١٦

عبادة

لامونى لأنني عبَدتكِ وقالوا مُلْحِدٌ مشركٌ بالله ! وفاتَهم أننا ونحن فى الكون حَدَثٌ إنما نحن والكونُ من روح الأله .

فرضًا علىّ يارب إنْ أنا عَبَدْتُكَ أن تشمل عبادتي الوجودَ وهل فى الوجود ربى سواك .

سبحانكَ ما كَفَر بكَ من آمن بالجمال فيكَ ولا آمن بكَ من كفر بالجمال لأجلك . أعبدكِ

يا حبيبتى والجمالُ يُعبَد ، فمنه أتينا وله نحيا وإليه تؤوب .

١٧

القمر

أخيالُ حالمٍ ضوءك هذا يا قمر ! فيم يسبح تفكيرُك وبِمَ يا تُرَى تهمس بكَ أحلامُك ! دِعَتُك ، شحوبك ، ابتسامتك ، إغراقك ، كل هذا يوحى إلىّ يا قمر بأنك حالم . أيا تُرى غَيَّبَكَ الذى غيّبنى فَهِمْتَ وراء الغيب واستحالت حياتك نوماً واحساساتك أحلاما !

كأنى بضوئك الباهت طيفٌ بَعَثْتَ به من هواجس أحلامك بعد أن غيّب الوسَنُ نورَ عيونك ! وكأنى بلونك الممعن فى الأغراق تثاؤبُ

الأمل المنبثق كالفجر من غضون خيالك !

أيها القمر هَلُمّ أذبْنى في ضوئك كى أسبح معك فى واديك وأمزج هذيانى بهذيانك . بى من الهوى يا قمر حنينٌ إلى الغيب وبوعي منه نزوعٌ للغياب . فنْلأنْسَ دنياي إطلاقاً ولأضِعْ رشدي بتاتاً كى يستحيل وجودي وهماً وشعورى إلهاما .

وليكن فى سماكَ مكانى . وليكن من سناكَ خيالى . فانما يعيش مثلك في الغيب يا قمر من غيّب قلبَه الهوى .

١٨

لقاء

هل تقابلنا يا حبيبتى ، وهل قَبّلتُك ! وهل حقّقْنا بعد طول الانتظار المنى ! يا لنفسى من

فرحةٍ فوق طاقة نفسى

أنا وإن جفاني النومُ ثَمِلٌ كالحالم. تتفتح عيناى عن طيفكِ فأخفُّ إليك. وأتخيلك إلى جوارى فافتح ذراعىَّ لك.

دعوتُ من حاضرى أمسى فعشتُ معك. وأدنيتُ من يومى غدى فظفرت بك.

ما الحب إلاَّ أن تتلاقى على الأحلام القلوب. وما دام قلبكِ عندى فأنتِ على الدوام معى.

١٩

الوقت

لم يزل بذكراىَ أمسُ عندما التقينا على حافة الغدير وكان الشفق يحكى فى اللهيب وجنتيك وقلبي.

فإذا بالشمس التي أشفقتْ علينا من عيونها تتوارى خِيال الغيب وقد أسلمتْنا إلى الليل الذي يُرخي على العاشقين سدولَه .

وغابت الكائنات جميعها إلا عن المحبين الذين يهتِك بريقُ قلوبهم سوادَ الليل وتعبث أنّاتهم الخافتة بهدوئه . فإذا بالأزهار اليانعة تفترُّ ثغورُها عن ابتسامةٍ لاذعة ، وإذا بالحشرات القابعة فى جوف الغصون تحدِّقُ فينا بعيون كالشرر .

وإذا بالنسيم الخافق يداعب شعرك فتعبث أطرافُه بجفوني ويعطّر شذاهُ أنفاسى . وإذا بالقمر الغارق فى الأحلام يغمرنا بأشعته الفضية فتحملنا معها إلى الغيب حيث يهذِي الأحبّةُ بالهواجس المستَحبَّة .

وإذا بكلبكِ الهازىء بالحب يتعالى نباحُه

فجأةً فيتملّكنا الخوفُ من قدوم الرقيب فتنسابين كالفراشة بين الأزهار وأتسلقُ السياجَ الشائك وحدي . وإذا بقدمىّ تعثران في القناة فيلوثهما الوحلُ ، فاذا أصبح الصباح ضننت بهذه الذكرى أن أزيلها فاستهدفتُ إلى وابلٍ من النكات اللاذعة .

يعلم الله يا حبيبتى أن رأسى لم يزل مثقلا بالأحلام لفرط ما لعب به سحرُك فى تلك الليلة . فكأنى وقد دوّختنى نشوةُ الهوى لم أزل أكتوي بسخونة عينيك وأرتوى من رحيق ثغرك . وكأن أنفاسك الحارة لم تزل تتدفّق فى صدرى ونبرات صوتك الحنون تنساب في أذنى .

لقد سَرقْنا فى تلك اللحظة بعض الوقت الذى طالما يسرقُنا . واستطعنا أن نعيش ساعةً لأننا

التقينا في الحب ساعة . فى حين يطوي غيرُنا السنينَ دون أن يمروا ولو لحظة بالحياة .

٢٠

الرسول

إذا حضر الرسول فسأتنهد ، وأتنهد طويلا . لأنى لا أعلم ماذا يخبؤه لى القـــدرُ العاتى بين شـــفتيه .

لِمَ أبطأْتَ علىّ أيها الرســـول وتركْتَ مهجتى تنتفض من القلق ! إن قلبى لَيناديك ، وروحي لَتَهيبُ بكَ وتدعوك ، أيها الرسول الذى بين شفتيك مصيرى .

عد إلىّ وخبّرنى كيف حالُ الورد في خدها . وكيف رأيتَ السنا الدامع في عينها . وكيف حال

مَقعدٍ لنا من يابس العُشْب وسياجٍ ضمَّنا فى ليالى القمر .

ها قد أقبلتَ أيها الرسول فأسرعْ ، إن روحى لَتَسبقني إليك . تُرَى هل يحمل لى نفحةً من حبها ؟ تُرى هل يحمل لى شرارةً من شوقها ؟

ما هذا الذى بيدك أيها الرسول ؟ وردةٌ ! إذَنْ هاتها . وما ذلك الذى تخفيه ؟ يا لَروحى ! شعرةٌ ... نَزَعَتْها من رأسها !

يا زهرةً تحملين فى شذاكِ أنفاسَ الحبيب ، ويا شعرةً من ليلها يندلع اللهيب ، مكانُكما القلبُ مثوَى صبابتي وحبيبى .

والرسالةُ أيها الرسول ، هل أديتَها ؟ وبِمَ

قوبلَتْ وهل حمّلتْك الحبيبةُ ردّها ؟

بى ارتيابٌ فيما تقول فأىُّ عظيمٍ يا تُرى من الأخبار تخفيه عنى ! بربك بُحْ لى بالحقيقة فلَلْيأْس عندى أهون من أمانٍ يتبين لى فى الغد أنها كاذبة .

كفى ! فداء ذاتِها الروحُ ، فما أحسب إنساناً يجرؤ على القسَم بها ويحنث . هو الصدق ما تقول فأعِدْ علىّ روايتك فوالله إن حديثك يسكرنى ! صف لى وأطنب ، كيف راحت تعبر عن شوقها ، وكيف شكت فعل الهوى في قلبها .

وقل لى متى يكون بعد طول النوى تدانينا ، وعند أىّ ناضرٍ من الربى تلاقينا .

يا رسولٌ ما أكرمك علىّ وما أبيض أياديك

عنـــدى ، لك الشكر ما حييت على جميـــل صنيعك .

٢١

انتظار

ها قد أشرفتُ على الحى الذي فيه تسكنين . النسيم الذي يخفق ، يحمل إلىّ أنفاسك . والقمر الذى يسطع ، يتبسّم نورُه عن طيفك .

ها هي دارك . وهاهى حديقتك . وها هو السياج الذى حيالَه نلتقى ، كلما سجا الليلُ فوارَى في دجاه العاشقين .

حبيبتي ! هلمّى إلىّ فهأنذا قد جئتك . يامن سقانى نورُ عينيك من الصبابة ناراً ، وأنْبَتَ فىّ الوردُ من وجنتيك اصفراراً.

لقد وعدتِ بأن توافيني مع الليل ... وها هو الليل قد جنَّ ولمّا تحضرى . ليت شعرى ما الذى جرى حتى تأخرت عنى !

آه ما أمر الانتظار بلا أمل ! إن قلبي ليرتجف فى خفقاته حتى ليُوشِكَ أن يهوى ! وأوصالي لتتخاذل كنبتةٍ أعياها الظمأ فمال عودُها .

حبيبتى ! ها أنذا أدعوكِ باسْمك لعلك تخفّين إلىّ . حبيبتي ! لِمَ لا تسمعين ، إن حبيبك هو الذي يناديك !

ما لروحى عندما هتفتُ باسْمك غمَرها الحنينُ فاذا بها سَكْرَى ! يالله ! إن الأحلامَ لتحلّق فى سمائي ! والأنغام ترقص حولى !

حبيبتى ! ها أنذا أناديك فلِمَ لا تسمعين ! لِمَ

تتركينى وحيـــداً وقد جئتُ من أجلك ! رَبّاه ، أأعود من غير أن أراها ! وماذا أفعل بقلبي ! ويلٌ لى من قلبي !

وداعاً يا حبيبتى ، وفى حراسة الملائكة نامى ، لاذقتِ السهادَ الذى يقرّح جفنى !

وداعاً يا من أرّقتِ بنُعْس الجفون عيونى ، ولْيهنأ بالنوم طرفك الساجى ، فى حين أصحو أساهر النجم وحدى .

يا دموعاً تشبه غيثَ الغمام وتحكى قطرات النـــدى ، حَتّامَ يستمر هطلك وقد جفت مآقيك !

أيها الليل الساجى متى تنفض عنك وحشتَك ! ومتى ينبثق ضوء الفجر فيبدد ظلمتك ! إن سَاهِرَكَ

يستوحش فى دجاك ويرقب بعـــد طول الجفاء صبْحَـك .

٢٢

الموعد

أنتِ يا من تباعدين ما بين مواعيـــد اللقاء وتسرفين فى الأيام كأننا نعيش مخلَّدينَ أو نأمن عاديات الزمن ، ما هكذا تطمئنين للأيام والأيامُ تغافلنا وتمضى .

السعادة كالشهاب اللَّمّاح يخطف سناهُ العيونَ وقلَّ أن يتاح للعيون أن تخطف من سناه . فهي تعمينا عنها حين تشرق فينا ولا تدعُنا نراها إلا حين تغرب عنـا . فهيّا يا حبيبتي نختلس من بارق الهنـاء الأمل ، ولنتبسّم اليوم إليه فغـداً سوف

نسكب الدموعَ عليه ..

- اخلق من كل شيء ومن لا شيء مناسبةً للقائنا ، وتحدّى بجنون الهوى عقل القـــدَر . واذكرى أنك إذا أردتِ أن تكوني مُحِبَّةً فلا تكونى عاقلة ، لأن الحب والعقل نقيضان .

قرّبى الميعـاد وهيّا إلى نزهة النيـــل نشقُّ بزورقنا لُجَجَ المياه ونرشف بين رقص الأمواج القُبَل . ثم نرسو عنـد باسق النخـل المخضَّب الأهداب بدماء الشفق ، فنتعانق بين أعشاب الربى ونتشاكى الهيام بالعيون الدامعة .

إننا ونحن فى فجر غرامنا أوْلَى بنا يا حبيبتى ألاّ نضيّع الأيام ، فلكم يحدثنى قلبي بأن الأيام ليس لهـا دوام ولا فجر الغرام له ضحى .

٢٣

سحر

يقولون إننا نضل في الظلام ولكنني ضللت في نور عينيك يا حبيبتي .

كلما لاح منهما النور زاغ الوجودُ في عينيّ ورحتُ أهيم في شعاعهما المريب على غير هُدَى . إنني ما اهتديت إلى شيء ، لا ولا بحثت عن شيء ، ولكنني فقط ، كنت أحس في أعماق قلبي بانفعالات جمةٍ خالَطَها الغموضُ فأكسبها حلاوةً ولذة .

لو درينا ما سحرُ العيون يا فتنتي لَمَا راعنا بعد اليوم عبْثُ العيون الساحرة . هو لغزٌ فيه من لَبْسِ الغموض بيانٌ ومن مَضَلَّة الابهام

يقينٌ وهدى .

٢٤

القلب

تسألين ما سحرُ الجمالِ ، أمامك المرآةُ فانظرى إليها . وحاذرى أن يخادعك منها السحرُ فتصبحى مُدَلَّهةً بحسنك مثلى .

أنا فى هواكِ ما بين واجدٍ ومضيِّعٍ لقلبى . حقبةٌ من حياتى قضيتُها في البحث عنه فكان فقدانى له بدأ عثورى عليه . فمن خفقة الحب ما أدركتُ أن لى قلباً ، وأن هذا القلبَ منى بالحب مُنْتَزَع . ذلك أنه مُذْ شُغِل بك يا حبيبتى راح يشغلني هو الآخر به .

يا من منحتني وسلبتِني فؤادى ، تعالىْ نتعانق

بقوة لنتبادل فى غفلة الحب اختلاسَ القلوب .
إن مَن أضاع يا حبيبتى فى الهوى قلبَه فقَدْ وَجَدَه .

٢٥

نشوة

وَصفَها الطبيبُ خمرةً من فمك لمّا عادنى . فاسقنيها شراباً سحريًّا يسيل في الروح فيُحيلها راحا .

أجملُ الأوقات لحظةٌ يغيبُ العقلُ فيها فتستفيق الهواجسُ المستَحبَّةُ فيه . وحياتُنا مَسٌّ من الوهم فكل مسٍّ يصيبنا فيها مُحبَّبٌ إلينا .

هاتِ فمكِ يا حبيبتى إذنْ وهيّا نغيب برهةً

مع الأحلام . أجل ، وتتوه العيون منا فيتوه عنا الكونُ إلاّ ما شابَهَ منه أطيافَ الكرى . وتضطرب الأرواحُ فتطايرَ مع التنهدات حيث تتلقاها الأنفاس المرتجفة . وتستحيل القلوبُ جمراً كلما أضرمه الهوى هبَّ منه علينا نسيمٌ وبرد .

ولكن ما بالُك يا حبيبتى ترفضين هـــلاّ افتديْتِ بشهد الجمال شهيدَ الجمال ! أيتها البخيلةُ بجمالك علىَّ أنا الكريمُ بروحى ، هبينى الحياةَ أو هبينى الموتَ فسيان عندى النقيضان ما دمتِ السبيلَ إليهما .

٢٦

قُبلة

من أين أشعل سيجارتى ، أمِنْ خدِّكِ الملتهب

أم من قلبي ! إني أضنّ بهذه النار أن تحرقها ، ووددتُ لو أحرقَتْ في إنْ أنت سمحتِ له أن يقبّلك .

آه ، لو أعَدْتِ لى بشفتيكِ ما سَلَبَتْه مني جفونك ! إذن لشربْتُ في تلك القبلة كأس الحياة التى أراقها من قَبْلُ حبُّك .

لا تحسبينى أكره الموت فى سبيلك ولكننى أحببتُ الحياة لأجلك . ففى سبيل حبك المميت ما أتشبّثُ بالحياة لأتذوّق فيها من الموت .

٢٧

دلال

عندما تزجرينى فأقبّل فمك الذى يزجر ، وتبعدينى فأقبّل يدك التى تُبعد .

وعندما يمتزج بخديكِ لهيبُ الفوز بحمرة الخجل ، ويختلط فى عينيك بريقُ الكبرياء بإغضاء الندم .

وعندما تجلسين هناك فى أقصى الغرفة ، تخالسيننى النظرَ من آنٍ لآنٍ وتهزّين ساقيكِ فى نزَق الأطفال .

وعندما أجلس تائهَ العينين ، أرقب فى لذةٍ قوتى وهى تتلاشى أمام حبك ، وكبريائى وهى تهوِى أمام سلطانك .

وعندما أنهض من مكانى كالثمِل ، فأطوّق خصرك بيدى وأسند رأسك إلى صدرى .

هنالك يا حبيبتى يخالط أعيننَا الوَسَنُ فنرى فى بعض الموت آيةَ الحياة .

٢٨

زهرة

غرستُها زهرةً فى آنيةٍ وسقيتُها من دموعٍ جارية . شمسُها كانت من لهب الفؤاد ونسيمها من تنهدات البعاد . غنَّيتُها فى الوصل الحانَ الهوى وشكوتها فى الهجر آلام النوى .

وترعرعَتْ فتفتحَتْ فازدهَتْ فى الروض لوناً وعطراً وسنا . فبكيتُ إذْ آذَنَتْها من شبابها المنيةُ لأن صحوةَ الحياة إنما تتضمن غمضةَ الموت .

فراودتُها على قطفها لأستشفَّ منها المعانى قبل أن يختلسها فى غفلة الشباب البِلى . فتمنَّعَتْ فقلتُ لها ما البخلُ بالجمال بواقيه الموت ولئن

تبذليه خيرٌ من أن تدَعيه يفنَى .

فقالت أجلْ إن يدَك وإنْ قَسَتْ ما إخالُها إلاّ أحنىَ علىّ من الزمان يدا . وأنا وإنْ عَزَّتْ علىّ الحياةُ لَيروعنى أن أمسى فى الغد فلا بى حسنٌ يرفُّ ولا يضوع من أنفاسى شذا .

فقطفتُها فقدمتُها إليكِ زهرة عبقريةً ماؤها من عصارة قلبى وروحُها من نُفاثات حبى . وَعَتْ أوراقُها المُذاعَ من سرى وأبانتْ بِصَمْتها المستورَ من وجدي .

إنصتي إليها تحدثك بكلامٍ هو وإن يكن غير مسموعٍ إلا انه فصيح . أسلوبها الشِّعرُ وإيقاعُها الأيحاء فهي تخاطب القلوبَ بلغة القلوب .

واحفظيها يا حبيبتي إلى يومٍ تؤاتينا فيه المنية ،

وعند ذلك نهجع إلى جوارها حيث يطيب فى غياهب الأبد السحيق استذكار الحياة .

٢٩

الضعف

لكِ قلبٌ يا حبيبتى ولى قلوب ! فأحبينى إن شئتِ وحدى ، أمّا أنا فلابد أن أشْرِكَ فى قلبي غيرك . لستُ أنكر ما للونك الأسمر من سخونةٍ توقد النارَ فى جوانحى ، ولكن لا تنسىْ ما لِلَّون الأبيض ما للفجر المنبثق من روعة .

إنما قُسِّم الحسنُ ما بين الحسانِ وما الجمال الكامل إلا مجموع ما فيهنّ من جمال . فدعيني إذنْ أتقلب بين الحسان حتى لا يفوتني شىء من الجمال الذي من أجله أحيا ، ولا تَكِلينى إلى عبث الفناء

قبل أن أحقق منه الأمانى فأن حياتى حُلمٌ لا يعود .

هَبِيكِ بكيتِ فما حيلتي أنا الأنانيُّ ككل إنسان إذا أنا تجاهلتُ دموعَك فى سبيل مطامعى ! أقرب الأشياء إلىّ نفسى فكيف أجيبكِ إلى ما فيه حرمانى فأبرّ بك وأعُقّ نفسى ! لك أن تشكى إلي القدَر ما أودعه القدرُ فىّ من أنانيةٍ ، ولكن لا تلوميني أنا البريء على أنى أردت ألاّ أكون ظلوماً لنفسى فظلمتك .

إبْكِ ما شاء لك البكاء ، ولْتتدفق دموعُك تدفُّقَ السيل وقد أذابت فى قطراتها الملتهبة حياتك . ولْتلمسى بخدّك المرتجف فى حرارة الدمع تلك الحياةَ الغالية وهى تنساب معه إلى حيث يذروها الفناء الذى لا يرحم .

ما أجمل دموعَك ! وما أعـــذب ضعفكِ وتوسلكِ وتنهداتكِ التي تُفتت الأكباد ! إن هذه المعـانى وإن انطوت على قسوة لَتستحيل في فؤادي إلى شعور بالحنان تشبه وداعتُه ابتسامك . وهل الحب إلاّ الحنـان ، عندما يستسلم القلبُ للقلب فيَفنى فيه ، فإذا به فى هذا الفناء يعود أقوى ما يكون شعوراً بالحياة ، وإذا بنا كلما ازددنا فى سبيل الحب انكاراً لأنفسنا ، زادنا الحبُّ زهوًا واعتداداً بها .

إذنْ أنا لست بالأنانىّ يا حبيبتى كما نَعَتُّ الآن نفسى ، ولكننى المضحِّى بالنفس فى سبيلك ، أقسو عليكِ ليعاودنى الحنانُ لأجلك ، وأُفنيك بالألم كى أفني فيك .

إنما الحبُّ فناءٌ نرتضيه لنلقىَ الحياةَ فيه ، وضعفٌ نستكين إليه لِنُحِسَّ قوةَ الجمال منه .

تفتننا القوةُ فيتمثل تأثيرُها فينا ضعفاً ، وقد تكون القوةُ جمالاً ، وقد يكون الضعفُ حُبًّا . فلئن مجّدْنا القوةَ لأنها الجمالُ فلنمجد الضعفَ لأنه الحب ، فما أجمل الضعف يا حبيتى إذن !

أنا ما أبكيتُكِ إلاّ لأبكى لأجلك ، ولا أذللتك إلاّ لأذلّ لك . ها أنا أنظر إلى عينيك لأبكى بدمعك . ها أنا أتلقى أنفاسَك لأتنهد بقلبك . ها أنا ألمس حرارتك لألتهب بوجدك . ها أنا أضمك إلىّ لأُفرغ فىّ ألمك .

أنا ما أحببتُ سواك ، لا ولن أحبَّ غيرك . لىَ قلبٌ واحدٌ وقد غدا مُذْ هويتك عبدك . جفّفى دموعَك ، كم أحبُّ بكاءك وكم أضنُّ بدمعك !

قدّستُ شهواتي فاستسلمتُ لها فما رأيتُ

كالضعف لذة . ونظرتُ لنفسى فوجَدْتُنى أفني فى النهاية فتـــذرونى الرياحُ فأحببتُ الضعفَ فى نفسى .

لن يتاح لنـا أن نتذوّق اللذةَ إلاّ إذا رضينا بأن نتذوّق الضعف . هبوا أننـا تذرعنا بالقوة فقاومنا شهواتنا حتى حطمناها ، فماذا يبقى لنا بعدها لكى نعيش ! شهواتُنا ! هل نحن إلاّ شهواتُنا !

٣٠

رحيل

أمس ودّعتُك ... وكأنمـا كنت أودّع روحي ! ولبثتُ أشيّعك من خلال الدموع وأنت تتمعنين فى الغياب إلى أن استحال وجودُك طيفاً . ثم عدتُ أدراجى ، فإذا الروضُ واجمٌ لا مَرَحَ

فيه ، وإذا الأغانى باكياتٌ تستثير الدموع . ويلٌ لليوم من الأمس ! . . . لأن جميعَ الابتسامات تنقلب إلى دموعٍ ، عندما تصبح العهود ذكرى .

لقـــد هجرت الدوحةَ من بَعدك ، لأنى لم أُطِق أن أرى مكانك خالياً منك . ثم عَزَّ علىّ أن أعُقَّ ذكرياتى فعدتُ أُطيلُ المُكْث تحت ظلالها وأستنطق العهودَ من صمتها . ولكَمْ أخلو إلى نفسى أردّد أغنيتك فما تلبث نغماتها أن تحمل إلىّ صدى الأيام الماضية . وهنالك تُغالبنى دمعةٌ طالما حبستُها فى عينى ، فأُرسلها ماءً صافياً ، ولكنه يضم فى جوفه لهيبا . ما وَفىَ لماضيه مَن ضنَّ عليه بالألم ، ولا بَرَّ بذكرياته من لم يسترخص فى سبيلها الدموع .

كنتِ كالطائر غَنَّى برهةً على الأيك ثم

هجره وخلّف لوعةً في القلوب . أيُّ أيْكٍ يضمُّك اليومَ يا ترى وأيُّ رفاقٍ إلى نزهة الغاب تصحبين ! وهل بكِ مثلي حنينٌ إلى الأوطان أم أنك كالطير تتعلق بهواكِ القلوبُ ولا تتعلقين بأحد !

سألوني ما إذا كنتُ نسيتُك ... كلاّ لم أنسَ أملي . لئن غبتِ عن عيني فأنت ماثلةً في خيالي ، أراكِ كما أرى الحُلُم . يا من رحلتِ عن الديار وخلّفتِني وحيداً ، ليتني كنتُ ظلّك فتبعتُك ، أو كنت النسيمَ فرافقتك !

٣١

استعطاف

حبيبتي ! يا صاحبة القلب الحنون ! لِمَ تنسين

بهذه السرعة حبيبك ! لِمَ أقصيتِني اليومَ عن قلبِك ، وقد كنتُ فيما مضى أقرب النـــاس إليـــك !

أنتِ يا مَنْ يُبكيكِ سجعُ الحمام وتجرحك خطرات النسيم ، ما بالُك اليومَ لا تأبهين للصارخ من دمعي ! لِمَ تبدَّلَ عطفك ، ورفقك ، وحنانك ، أنتِ . . . يا صاحبة القلب الحنون !

ما لعينيكِ أصبحتا وكأنهما لا تعرفانني ! وما لقلبك غدا وكأنه ما خفق لي ! أفيما بين يومٍ وليلةٍ ينقضي ما كان بيننا فلا الشوقُ حائرٌ بالفؤاد ولا الدمعُ مُشْرِفٌ في العيون !

أمس فقط ، استقر رأينا على أن نسمي ابنتنا « رمونا » ، فليت شعري ما الذي جرى حتى

تبددت الأحلام ! واهاً لكَ يا دهر ، إن الأمان لَمُستحيـــلٌ مع تلونك ، والدوام لعبثٌ مع تقلبك !

حبيبتي ! أمفترقان نحن اليوم إلى الأبد ! إذن فسوف لا نبني عُشَّنَا من جذوع الشجر ، وسوف لا تولد « رمونا » ، فيا للأسف على ذلك الحـــلم الجميـــل !

أيها القمر الذى أغرقْتنا بشعاعك ، هل سيطلع علينا بعد اليوم نورُك ! أيها النهر الذي بلَّلْتنا برشاشك هل سيشب إلينا بعد الآن موجُك ! أيها الروض الذي جلَّلتنا بظلالك ، هل سيجمعنا فى غدٍ دوحُك !

حبيبتى ! يا أعزَّ مَنْ فى الوجود ، ويا حُلُماً

مضى فما يعود ، سَقَى اللهُ عهداً كنتُ فيه حبيبك .

٣٢

الماضى

أين غبتَ عنى أيها الماضى الجميل وتركتنى أتحرّق شوقاً إليك ! لِمَ أخذَتني معك ، وأخذتَ حبيبتي ومضيت ! ويحى ! لست أنا الآن في يومى ذلك الذى كنْتُه فى أمسى ! فليت شعرى ما ذلك الذي مضى وما ذلك الذى تَخَلَّف منى !

أين شخصى القديم الذي كان يلازمه الحبيبُ ويحدوه الأمل ! أين شخصى الذى كان يفوح منه عطرُ العناق ويبلل شفتيه رحيقُ القُبَل ! أين شخصى المشرقُ المتهلل الباسم أبداً للحياة ! إنه

مضى ! مضى بلا شك مع الزمن ، وحل محـــله شخصى الحزين الماثل أمامى الآن .

يخيل إلىّ أن حياتى ليست إلاّ سلسلةً حلقاتُها الماضى والحاضر والمستقبل ، وأنى الآن في حاضرى لستُ إلا حلقة فى سلسلة حياتي . وانه لَمُحالٌ أن يكون الانسان منا مستحوذاً على نفسه ، بل إنه ليرقبها بعينيه وهي دائبة الأفلات منه دون أن يقوى على كبحها .

إنّ تَعَلُّقَ الحياة بالزمن يجعلها سلسلةً متواصلة من الفواجع . فنحن أبداً نمضى ، وأبداً نحنّ إلى ما مضى منا ، ومن هنا طُبع مزاجُنا على الحزن والحنين . دائماً حواسنا متعلقةٌ بخواطرَ ماضية لا تفتأ تهيب بها وتحيطها بجوٍّ غامض من الأسرار إنْ هو إلا عالمنا الشعرى الذي يزاحم فى

تصوراتنا العالمَ المحسوس . نحن نبكى الماضى ، وما نبكى إلا أنفسَنا فيه ، فيالتفاهة حياةٍ يُفجع فيها الانسان فى نفسه !

آه ، أيها الماضى الجميل ! ليتكَ تعود إلىّ لحظة ، وتجمعنى بمن أحبُّ لمحة ، أيها الماضى الذى غافلْتَنى ومضيت !

٣٣

ذكرى

أنا مشتاقٌ إليك يا حبيبتى فهل بكِ شوقٌ إلىّ ؟ وهل نحن اليوم كما كنا بالأمس قادران على أن نبلِّغ الشوقَ المنى !

أحقًّا أن ما كان بيننا قد انقضى فاذا حان ميعادك لا أخفُّ إليك وإذا أقبلتِ لا تجدينى

بانتظارك ! وأنى الآن أصبحت أنام مِلْءَ الجفون بعد أن كنتُ لا أرى النوم إلاّ في نعاس جفونك ! أحقاً أنى أفقتُ مما كان بي ومضى عني ذلك الشاغل اللذيذ الذي ملأ كل فراغى !

أحُلُمٌ كنتِ أم كنتِ حقيقه ! متى طلعتِ وأين غبتِ ومَنْ أقصاكِ ولِمَ ! أين أيامُك ، أين عهدك ، أين زمانك ، أين عصرك !

لو لم يكن لى أمسٌ لَمَا عرفت الشقاء في غدى . أمّا وقد استحالت العهود إلى ذكريات فيا ويلى مما مضى من هنائى !

فقدتُك يا حبيبتى وإنه لَعزيزٌ علىّ والله فقْدك . فياليتنى ما حظيت بقربك ، إذنْ لَما كنتُ ألتاعُ غَداةَ الفراق لبعدك !

عندما تتالق الابتسامة على الشفاه يتأهب الدمعُ من ورائها للنزول. وما الذي ينتابنا فى الحياة من حزن إلاّ ذكرى ما نلقاه فيها من سرور.

٣٤

موت

كلاّ لا أنتحر بل يقتلنى من أجلك الحزن. فإذا ما طوتنى المنيةُ فابكى يا حبيبتى لا علىّ وإنما على الحب الذى سيبلى. واحملى إلى القبر السحيق باقاتٍ من الورد الذى تبادلنا إبّان حُلُمِ الحياة.

ما بعزيزةٍ علىّ نفسى وإنما الحب الذي تضمّه لك نفسى. ولا هالني انطفاء النورُ من عينيّ وإنما أن يغيبَ بانطفائه نورُك، حين أُمسى فلا بى هوىً

بالفؤاد ولا بى فؤادٌ يهوى ، وأُحرمُ حتى من شعور الحرمان منك .

إذا أوشكَتْ الحياة أن تغيب تعلَّقَ القلبُ حتى بالذى بَرَّحَهُ من الهوى . وَدَدتُ وأنا فى سُبات الموت لو أحلم مرة بالحياة .

٣٥

صلح

بقدر ما أحبك ، أغضب منك . لأنى أحفل بأقل شىء ، عندما يكون الأمر عندي كلَّ شىء .

إذا حانت منكِ إغضاءةٌ واحده ، أحسستُ باليأس يدبُّ في قلبى . فأخاصمك ، لأني أضنُّ حتى بالذى لا يُذكر من حبك . إمّا أن تكوني لي كلك ، وإمّا أن أثور على نفسى فأتحدَّى

جنـــونى بك .

لئن قُدِّرَ لى أن أفقد بعضَ نفسى ، لَدَفَعْتُ إلى الانتحار بقيةَ نفسى . التوسط عندى أدنى من الحرمان ، فَلَكِ أن تمنحيني كلَّ شىء ، وإلا فإني لا أرغب في شىء . إنّ دموعى وإنْ قَسَتْ ، أرحم بى من فاتر ابتساماتك . وموتي وإنْ قَبُحْ ، أَحَبُّ إلىّ من أن أعيش بنصفى .

ليس من حقى ، ولا فى مقدورى ، أن أُلزمك بأن تشغفي بى وحدى . ولكنْ من حقى — إذا كان فى مقدورى — أن أختفى إذا لاح فى الأفق غـــيرى .

وعندما خَبَرْتُ نفسى تَبَيَّنْتُ أن ذلك فى مقدوري ، لا لأنى فاتر الحب ، وإنما لأني حديدىٌ

الأرادة . سهلٌ عليّ أن أرقب نفسى وهي تتحطم على صخرة شهواتها ما دام ذلك بإيعاز إرادتي . إنى أشفق عليها أن تتخلى عن مطامعها ، كما أربأ بها أن تَذَلّ لها ، ولكننى أرضى لها أن تتحداها فتشقى بل تندحر من أجلها .

يَخدع الانسانُ نفسَه إذا ظن أنه عندما يهرب من مطامعه يتخلص منها . إن الأمانى الضائعة لا تموت ولكنها تكمن فى قرارة النفس فتذلها إلى الأبد . وَلكَمْ يفر الانسان من اللغز العويص ويحسب أنه قد حله ، ولكنه لا يلبث أن يتنبه للألم الدفين يمتص فى الخفاء دمه .

هجرتُك يا حبيبتي وَشدّ ما هالني أنه كان فى استطاعتى هجـــرك ! لأنى مذ آنستُ القوة فى إرادتى ، رحت أتوقع لنفسى ما لا طاقة لغيرى به

من الألم . ذلك أنى دأبت على محاربة حبك فلا أنا انتصرت ولا أنا تراجعت ، فتكرر مصرعي بتكرار هزائمى حتى غـــدت حياتى سلسلةً من الموت !

غير أني التمستُ العزاءَ لنفسى عندما تبينتُ أن آلامى تخالِطُها شجاعةٌ وإباء . لأنني لم أتخلَّ عن رغباتى فأجحد بها ، ولكننى أبقيتها وتألمت فى سبيلها ، فكنت فى ألمي شجاعاً ، وكنت فيه وفيّـــا .

أجَلْ خاصمتك يا حبيبتى ، وكان فى نيتى أن يكون الخصامُ خصامَ الأبد . ولكن ما دمتِ قد أقسمت لى بأنك وفيّـة ، وبأنك كنتِ تمزحين لتمتحنى حبي ، ففي وسعى أن أعتبر نفسى عجولاً ، وفى وسعك أن تعتبرينى غبياً ، ولكن في وسعنا نحن

الاثنين أن نعود كما كنا .

وهاهي قبلةٌ أطبعها على جبينك ، ليس أطهر منها سوى قلبي . قلبي ، الذي بقـــدر ما يحبك يغضب منك ، وبقدر ما يحبك يصفح عنك .

٣٦

صدود

بقدر ماتريده تصدّه . خَشِيَتْ أن يعرف الملالَ قلبُه .

غاية الحب أن يظل إلى الأبدْ . يحرم نفسه اليومَ ليحظى بغَدْ .

كم أمانٍ في صدره تجيش . يقتلها طمعاً في أن تعيش .

طردَتْهُ ، ثم شيّعَتْه بالدموع . وجَرَتْ تشكو لهيباً فى الضلوع

ثم رضيَتْ أن يطول بُعْدُه . لو يبقى على العهد قلبه .

يقيم العاشقون في الدنيا بأجسامهم . ولكنهم يلتقون فى الغيب بأرواحهم .

ولقد يتأون فيزدادون تدانيا . ولقد يتخاصمون فيزدادون تصافيا .

٣٧

الأسلوب

أتذكرين ياحبيبتى عندما فرّق البعد ما بيننا فتحدثنا بالبريد عما بنا ؟ لقد كان أسلوبك كخيال

الحالم ، فعندما كنتِ تتحدثين إليّ فكأنما كنتِ تناجينني من وراء الغيب فتغيبين بروحي إلى عالمٍ من الأحلام .

أسلوبٌ إذا آتَتْهُ الحكمةُ أذابَها في شعرٍ فتناولتْها الأرواح شراباً شهيًّا . وإذا صيغ أفرِغ في قالبٍ من الجمال فانساب في الأسماع نغماً شجيًّا . وإذا انطلق كان شرارة من أنفاسك فبدا من فرط الحرارة حيًّا . وإذا سار اطّرد على نَسَقٍ واحدٍ فكان في ائتلافه تنغُّماً وتريًّا . وإذا انساب دَلَّ على سماحةٍ فتنزَّه عن الحقد الذي يستفزُّ من النفوس ما كان ذكيًّا . وإذا جرى جمع إلى الفكر الروحَ فأتى بما يغيب عن العقل وينزل على النفس وحياً شعريًّا . وإذا عاتب لم يفحش في القول واستعاض عن السباب منطقاً سحريا . وإذا تُلِيَ

فهمته الخاصة دون العامة فلا هو مبهم ولا هو يصوغ القول صوغاً عادياً .

وأعجب ما فيه أنه كان عميقاً كالحياه سريعاً كالزمن . فهو يعطى للزمن من الحياة ولا يعطي للحياة من الزمن . والزمن نحن والحياة ماحولنا ، وقد نفنى وتبقى من بعدنا الحياة . فالليب من سبقت حياته زمنه فعاش أطول من عمره ، لأنه إذ ذاك يفوز بأكثر دنياه فى أقل وقته .

وأحياناً كانت تشوبه ثرثرة ولكنها مستحبّة ، لأنها لم تكن تكراراً وإنما ترجيعا . وأحياناً كان يشوبه بطء ولكنه مستعذب ، لأنه لم يكن تلكئا وإنما تأملا .

هكذا ياحبيبتى كان أسلوبك ، فياحبذا لو نحا نحوك الكتّاب !

٣٨

الحرمان

إنما يخلق الحرمانُ الغاية . لأن الغاية هى تخيُّل ما يجب أن يكون . وما يجب أن يكون لم يوجد بعد .

والغاية تمهد لنفسها بالأحلام . لأن الأحلام هى تلك الهالة المقدسة من الخيال التي تنسجها الغايةُ حول نفسها لتلهو بها إلى أن تتحقق .

وكما تنحدر الأحلامُ فى شكل أمنيةٍ من الغاية التى لم تتحقق ، تقفز فى شكل ذكرى من الغاية التي تحقق بعضُها . ذلك أن الغاية التي لم يتكامل تحقيقها تحاول أن تستكمل ما فاتها بالذكرى ، فنحن عندما نختلس القبلة التى ليست إلا بعض ما نطمح إليه ،

نحاول بعقلنا الباطن أن نتخلص من بقايا الرغبة المكبوتة فيه بتخيل ما تحقق منها .

على أن الذكرى على مافيها من لذة غير محدودة لا تكمّل ما نقص من الغاية وإنما تزيده لأنها تذكيه . ولكن حبذا ذلك لأنها لو أكملتها لأبادتها . وإنه ليمثل هذه الاعتبارات الفذة ما ينفرد الحب بلونه الخلاب .

فنحن إنما نحلم بالحب الذي لم نظفر به ، أو الذي ظفرنا ببعضه . ولكننا لا نحلم بالحب الذي ظفرنا به كله ، لأن الغاية إذا تحققت ماتت إذ أنها إذ ذاك تستحيل إلى لذة تذوب فى حواسنا . وإذا ماتت الغاية ماتت معها الأحلام .

ولكنّ الحبَّ الأبيَّ يظل دائماً غايةً لم تتحق . لأن تحقيقه لن يتكامل فكأنه لم يتحقق . فالحب

عندما يختلس القبلةَ لا يروى كل ظمأه منها فيظل به شغفٌ إلى التقبيل . فهو يمهد للقبلة الجديدة بالأحلام ويستكمل لذة القبلة القديمة بالذكرى . ومن هنا كان أن أحيط الحب بالأحلام .

٣٩

الأحلام

إنْ تحرمينى منـاىَ فيك تُبَلِّغيني من الحب المنى . لأن الحب إذا انتابه الحرمانُ راحت تحلّق الأحلامُ فى سمائه .

والأحلامُ أجمل اللذات وقعاً فى النفوس لأنها ومَضات إحساسنا الباطن . وإحساسنا الباطن هو شخصيتُنا لأنه يمثّل كمية الآدمية المكتنزة فينا منذ الأزل . فنحن إنما ورثنا أنفسنا من الأجيال ، وما

شخصيتُنا إلاّ ذلك الغابر المدّخر فينا يتراءى — وقد قَدُمَ عليه العهدُ — في شكل أحلام وهواجس .

فأحلامنا هي رجْعُ ماضينا ، ونحن لسنا أبناءَ يومنا . فنحن إذ نحلم إنما نتفاعل مع أنفسنا وإنه لمَنْ أنفسنا ماتتولد لذاتنا . إن اللذة كامنةٌ فينا وليس بيننا وبين الأحساس بها إلاّ إثارتها . وكل شيء نُحِسُّه مستترٌ في شخصيتنا ، وما كان غريباً عنا إنما يعجبنا لأنه يكشف عنا .

أيها المسرفُ المُلِحُّ في طمعكَ يا قلبي هَلاّ آمنْتَ بلذة الحرمان في الهوى ! إنك لن تكون منعّماً حتى تكون في طمعك شقيًّا ، ولن تكون فيه شقيًّا حتى تكون منه محروماً .

أيْ حبيبتي ، إذا سألْتكِ اليومَ موعداً فقولي غداً . فإذا أقبل الغد فقولي بعد غد . وحذار أن تفي

بالوعد إلا أن تخافى على فؤادى أن يهلكه الأسى .

إنْ يفُتْنى بعضُ المنى فيكِ أفُزْ بأقصى الأمانى فى الهوى ، وهل لغير الهوى يا حبيبتى أريدك !

٤٠
الشك

ما أبدع الحبَّ يدخله الشكُّ فيحيطه بالأسرار ! وشدَّ ما نحن مولعون بالأسرار ، أمَا ترانا أنفسَنا لغزاً لم يُفسَّر !

حتى الجمالُ الذى يفتننا يستمد روعته مما يسبح فيه من معانٍ غير مفهومة ! فأنا ما أحببتكِ إلا لأننى توسمت فيك سحراً ولم أدْرِ ما هو !

ولو أننى دريته لمجته ، لأن معنى أننى حللتُ

اللغز أنني قهرته . ولا يكون التلذذُ بالشيء إلاّ حيث تكون العواطفُ مقهورةً به ، إذ ماذا عساه يكون افتتاننا بالجمال إلاّ أن يكون شعوراً منا بالضعف حيال قوته !

الشك ! ياله معنىً يهز الحواسَّ بعنفٍ فيولّد من تفاعلها اللذة . اللذة ، التى كثيراً ما هى مشوبةٌ بالألم !

ولكنَّ في بعض الألم لذة . فالدموع ، واللوعة ، والسهاد ، مَنْ مِنَ المحبين الذين صحَوْا من غفوة الحب لا يحنُّ إلى ذلك العذاب المقدس !

على أن الألم وإن يكن أدنى مرتبةً من اللذة إلاّ أنه يَفْضُلُ الخمول . لأن فى الألم — كما فى اللذة — معنى الحياة ، في حين أن فى الخمول معنى الموت ، وأنىَّ للموت أن يقاس بالحياة ! إن الخامل

نصف حى. ولكنّ نصفَ الحى هو أيضاً نصف ميّت.

فالانسان المتفوق يكون فى وسعه إلى حدٍّ ما أن يستعذب الألم. أن يلاشيه فى إرادته الغير محدودة، ويخلق من صداه معنًى جديداً من الشعور هو أقرب إلى اللذة المتمردة منه إلى الألم.

كم أعبد الشكَّ يا حبيبتي إذن، وأود برغمي لو أرتاب فى هواكِ إلى الأبد! كلما دعانى فضولُ الهوى أن أسألكِ ما إذا كنتِ تحبينني، فلا تقولى أحبُّك، وإنما قولى لا أدرى.

٤١

الاستمناع

آه لو أولد من جديدٍ فأقضى الحياةَ على النحو

الذي فاتنى !

إذنْ لزَهِدْتُ في العمل الذى حسبته سبيلا إلى غايتى ، فما أبقَ على وقتى ولا حقق غايتى . ولأطلقتُ نفسى مع الطير أرشف القُبَل من ثغور الأقاحى وأحتسى الرّاح من كئوس الثمر . ولشغفتُ بالشعر والغناء كيما ترقص الأحلامُ حولى كلما غرّدْتُ بالنغم الحنون .

ولرَضِعْتُ من الهوى صبيًّا ، ولم أرجىء إلى غدِى ما قد لا أكون قادراً عليه فى غدى . قلوبُنا كالزهر لا يتفتح إلاّ فى ربيع الحياة وإذا طلع عليه الخريفُ ذوَى . فحرامٌ علينا أن نستمهل الشباب بينما دنيا الشباب المُجِدّة لا تمهل .

ليس فى غدِنا أمنيةٌ أدنى إلى الحقيقة مما نحن عليه في يومنا . فعَلامَ تضييع العمرِ فى انتظار

الأمانى والأمانى بين أيدينا !

ولِمَ نحجم عن اللذات اتقاءَ الهـــلاك بينما الإحجامُ يُهلكنا ظمأً إليها ! إذا نحن لم ندفع من أنفسنا ثمن تمتعنا دفعناها كلها ثمن حرماننا. وزمانُنا مسرعٌ بنا نحو النهاية فإذا لم تُفْنِنَا لذاتُنا فلسوف يفنينا زمانُنا .

عزيزٌ عليَّ أن أمهل شهواتي ، وما أشتهيه اليوم قد أفقد الرغبةَ فيه غداً ، وما أقدر عليه فى صباي قد لا أستطيعه فى كهولتي . إن شهواتِنا وليدةُ وقتها فهي تذهب بذهاب وقتها . وتحقيقُها رهنُ اقتدارنا ، وما بيدنا أن يظل اقتدارُنا .

وحتى إذا بقيَتْ وبقى لنا اقتدارنا ، فمن يدرينا ألاّ يخلو بنا الغدُ فاذا الأمانى سرابٌ

خادعٌ وإذا الأحـــلام خيالات هاذية ! وهبْهُ صَدَق ، فمالنا والتماسُ الأمانى فيه ، وما بينه وبين نهايتنا ليس أكثر مما بين نهايتنا وبين يومنا .

زعموا الحبَّ لهواً فقلنا وأين فى الحياة الجد ! نحن المحبّين وددْنا لو نفني فى الهوى لأننا نضنُّ بأنفسنا أن يفنيها الزمن !

٤٢

الغاية

كل ما يَلَذُّ لى ، يبرر فى نظري وجودي . وكل ما لا يلذ لى ، يجعلني طُفَيْلِيًّا فى وجودي . وعلى ذلك فكل ما يلذ لى ، هو لى غاية . وكل ما لا يلذ لى ، قد يكون وسيلة ، أو لا يكون شـــيئا .

أمّا ما يلذ لى ، فإن الذى يعيّنه لى هو ميولي. وأمّا ميولى ، فتدل على نفسها بنفسها دون أن تحمل فى ذاتها أيّما تعليل . فأنا مثلاً أحب الجمال وأكره القبح لا لشىء إلاّ لأني خُلقتُ هكذا .

وميولى وليدة غرائزي ، وليس في وسعي أن أتحكم فى غرائزى ، فأملى عليها ضروباً جديدةً من اللذات تجهلها ولا تستطيع أن تفتعل الأحساسَ بها .

وغرائزى قديمةٌ فىَّ ترجع إلى الأزل الذى تلقيتُ عنه نفسى . فهى مرآةٌ تنعكس عليها صورُ السنين ، ووترٌ تُرَجِّع نغماتُه صدى الأجيال . وكلما أمعنتُ فيما تتمخض عنه من أحاسيس وميول ، لا أجد فيها إلاّ محض أحلامٍ وهواجسَ

كل ما فيها أنها طريفةٌ مستجبة . ولكن ماذا يحتاجه الشيء كيما يكون جديراً بالقيمة فى نظر الإنسان إلاّ أن يكون طريفاً مستجبا !

فلا يذهبنّ بي الفضولُ إذنْ إلى أن أتبرم من ميولى وأجحد شهواتى ، لأنه ليس لى أن أفهم نفسى على غير النحو الذى حددته غرائزي . إذ ما أنا وماذا عسانى أكون اللهمّ إلاّ تلك المجموعة الزائفة من الانفعالات التى تنعقد فتكوّن فى النهاية شخصيتي !

وإنى كإنسان أرجع بنفسى إلى بدء الخليقة وأمثّل في شخصى البشريةَ كلها ، أرى أنْ ليس فى ميولى جديد وقديم . ذلك أنّ الميول ليست إحساساتٍ مستقلةً بذاتها وإنما هى وليدة الغرائز . والغرائز تتهذب ولكنها لا تتبدل ، فالأحساسات

المنبعثة عنها وإن تغيرت فى شكلها تبقى محتفظةً بجوهرها . فأنا لم أزل أتأثر بجمال الغابة كما كان يتأثر بها سَلفى القديم الممثَّل الآن فى شخصى ، وكما سأتأثر بها فى الغد ممثَّلاً فى خَلَفي .

فالعمل مثلاً — وكثيرٌ من الأشياء غيره — لا يحمل فى ذاته أدنى لذة ، ولكننى أزاوله لأتوسل به إلى تحقيق أمور أُخَرَ تلذ لى ، وعلى ذلك فهو وسيلة لا غاية .

وما دامت الوسيلة ليست إلاّ أداةً لتحقيق الغاية ، فيجب ألاّ يفوتنى أننى — ونشاطى فى هذه الحياة محدود — لا ينبغى أن أُفنى هذا النشاط كله فى الوسيلة حتى لا تفرغ منى الحياة قبل أن أصل إلى الغاية . إنه لمن سِقَم المنطق أن آتى بالوسيلة لأسخرها فى خدمة الغرض فإذا بها تصرفنى

عنه . وإذا بى أفقده فى طريق إليه .

مَعَاذَ العقل أن أسمح لنفسى أن أقع فيما وقعتْ فيه الحضارةُ من خطأ فيشغلني العلمُ عن الشعر والعملُ عن الفراغ والماديةُ عن المعنوية ، فأفقد بذلك غاياتى وأفقد بفقدانها مبررات وجودى .

على أنه وإن تكن الوسيلة أدنى مرتبةً من الغاية ، إلاّ أنّ من الغايات ما هو أدنى مرتبةً من الوسيلة ، وذلك عندما يكون مضيّعاً لغاياتٍ أُخَرَ خير منه . فالخمر مثلاً يعتبر غاية ، لأنه لذيذ، وكل لذيذ غاية . إلاّ أنه يفقد قيمته لأنه يهدم صحتنا التي هي أداة الأحساس بسائر الغايات .

على هذا النحو يجب أن أفهم نفسى وحياتي ،

وأتصرف فى نشاطي ووقتى . أقدّر غاياتى وأدأب على تحقيقها ، وأطلب الوسيلة بقدر ما أسخرها فى خدمتها فقط .

فإذا ما رأيتِنى يا حبيبتى أتفانى فى حبك وأهمل ما عداه ، فما ذلك لأنني ضللت صوابي ، وإنما لأني أُحسن فهم نفسى .

٤٣

السعادة

لِمَ نتوسل إلى السعادة بالعمل المنهك بينما السعادةُ لا تحتاج منا إلى كبير عناء ! إن غاياتنا بين أيدينا وليس بيننا وبينها إلاّ أن نريدها . ففى الجمال الكامن فى النفس والأنسان والطبيعة أملُنا المنشود ، وفى الأرادة المتقمصة فينا ثمنُ هذا الأمل .

فإذا ما رغبنا فى السعادة فما علينا إلاّ أن نفهم أنها بين هذه الأشياء ثم نتجه إليها بقلوبنا ونغمرها بالحب الذى لا يلبث أن يفيض علينا بأجمل الأحساسات وأروعها .

ليس أوفر فى الدنيا من السعادة ولا أرخص من الثمن الذى تُشْرَى به . بيْد أنها تعز علينا لأننا لا نُحِسُّ مكانها منا ونروح نفتقدها بين أشياء لا وجود لها فيها ، وما نزال نسلك فى هذا السبيل الطرقَ الوعرة إلى أن يصيبنا الأعياء ، فلا نحن نصل إلى ما كنا نريد ، ولا نحن إذا وصلنا إليه نجد فيه السعادة التى توهمناها فيه .

محالٌ أن يكون فى اللباس الأنيق أو البناء الفخم سعادةُ الإنسان . كل ما كان من صنعنا لا يبهرنا ، لأننا ونحن جزء من الطبيعة ، لا يؤثر فينا إلاّ ما كان

من صنع الطبيعة . وكل ما لا يبهرنا غير قادر على التغلغل إلى أعماق نفوسنا وإشعارها بحرارة التمتع ولذع السرور الجميل .

فجمال الطبيعة ، وجمال الأنسان الذى هو بعض الطبيعة ، وجمال النفس التى هى بعض الأنسان ، وما انحدر عن هذا الجمال من هواجس وأحلام مستحبة ، هو السر الذى تتقمص فيه كل سعادتنا . فدعينا يا حبيبتي من هذه المدنية الصاخبة ، وهيّا نَعِشْ هناك فى الغابات والصحارى ، فإن فيك وفى نفسى وفى الطبيعة التى سوف تضمنا ، تكمن السعادةُ التي تعبْنا فى البحث عنها .

آمالُنا بين أيدينا ، وثمنها كامنٌ فينا . فهي أقرب ما تكون منا إذا أحسسنا بها . وهى أبعد ما تكون عنا إذا تغافلنا عنها .

٤٤

الطبيعة

يلوح لى أن الحيوان أكثر توفيقاً منا فى الحصول على السعادة . ذلك أنه يلتمسها من اتجاه فطرته فلا يلبث أن يفوز بها . أمّا نحن فنتعامى عن حقيقة موضعها ، ونروح نفترضها فى أشياء لا صلة لها بها ، ثم ننطلق وراء هذه الفروض الخاطئة فما نزال نَهِبُها من نشاطنا ووقتنا إلى أن نحسّ الخيبة أخيراً بعد أن تكون حياتُنا قد قاربت النهاية .

لذلك فأنى أهيب بالبشرية أن تعود إلى طبيعتها ، لأنه ليس فى وسع هذه المظاهر المفتعلة أن تجيب على نزعات الانسان التى تحدد دون سواها ماهية سعادته ومكانها من الكون .

وليس معنى ذلك أن نعود إلى همجيتنا الأولى، وإنما أن تكون الحضارة التى نرتضيها قد تطورت فى البداية عن أصل يلتئم مع طبيعتنا، كى يتاح لها أن تحمل معها — مهما غيَّر منها التطور — أثر هذه الطبيعة الذي يسبغ عليها خاصية الانسجام. فسلوكنا يجب أن يكون مزيجاً من التقهقر والتقدم، فنتقهقر لنصل إلى أصول الأشياء، حتى إذا ما وصلنا إليها تقدمنا بها فولّدنا منها صورة الحضارة التى نصبو إليها.

عندما استرسل رجال الفكر فى نشاطهم، حصروا عقولهم في دوائر أبحاثهم الضيقة، ولم يطْلقوها بحيث تتصل أولاً وقبل كل شىء بالغرض الأسمى من الحياة، فكانت النتيجة أن أفلت منهم هذا الغرض، فأتوا لنا بأشياءٍ عجيبةٍ فى ذاتها

ولكنها لا تتفق البتة مع الغاية من الحياة . حوّلوا الحياة — وقيمتها فى أن تكون معنوية — إلى شى مادي وأبدوا فى ذلك مهارة فائقة ، ولكنهم قبل أن يسترسلوا فى سخافاتهم لم يفكروا فيما إذا كان الأوفق للأنسان أن يقطع صلته بنفسه وبالطبيعة وأن يجحد سجاياه الفطرية التى لا يُعَدُّ شيئاً بدونها ، أم أنه يسير في الاتجاه الذى تعيّنه له تلك السجايا .

لا جدال في أن السيارة أسرع من الحصان ، ولكن اية قيمة فى هذا ! إن قِيَمَ الأشياء نسبية ، فقيمة السرعة لا تظهر إلاّ فى ظل الحضارة الحالية . لأنها — وهي ضربٌ من الشذوذ — كان لابد أن ينضم إلى سائر حالات الشذوذ التي تتألف منها الحضارة نفسها . فاطّراد الخطأ فى الشىء الخاطىء

أصلاً لازمٌ ليوفّر فيه الأنسجام الذى يحفظ كيانه . بل إن السرعة غير مجدية فى اقتصاد الزمن ، لأن الوقت الذى توفره لنا يضيع فى تَبَعْثُر أفكارنا بالمشاغل الجمة ، فتبدو الحياةُ فى نظرنا أقصر مما كانت .

فإذا ما نحن أنكرنا الحضارة الحالية بكافة تفاصيلها وأقمنا بدلاً منها حضارة أخرى تتمشى مع طبيعة الأنسان ، فسرعان ما تنكشف لنا القِيَمُ الحقيقية لهذه السخافات ، وعندئذ تبدو لنا الأشياء الجديرة بالقيمة حقًا .

إن هذه الحضارة بما تتَّسِمُ به من طابع مادىٍّ مَسَخ آدمية الأنسان وجعل منه كائناً ميكانيكياً سخيفاً ، لا ينتظر منها أن تحقق سعادته . وإنى لا أعتبرها أكثر من أنها فترة انحلالٍ مرت

بالأنسانية ، سوف تعقبها بلا ريب موجةٌ « رومانتيكية » يعيش فيها الأنسان حياةً أقرب ما تكون إلى الشعر ، وذلك عندما تتنبه فيه طبيعتُه الفذة بعد أن يستفزّها إرهاق المادية .

فهيا يا حبيبتى نهجر المدَن الصاخبة إلى حيث نرعى الغنم سوياً فى البرارى ، ونُطْلِق لسجايانا بين أحضان الطبيعة العنان .

٤٥

العدالة

طغى فى هذا العصر الصالحُ العام على العدالة حتى تحطَّمَ الفردُ أو أوشك . ولا قيمة للصالح العام مالم تكن العدالة غايتَه ، فنحن عندما نبتغي الصالح للجماعة لا نبتغيه لذاتها لأنها من حيث هى

لا تعنينا في شيء ، وإنما نبتغيه لكى يؤول منها فى النهاية إلينا . فما الجماعة إلا قِمَّةٌ تنتهى إليها جهودُ الأفراد وأمانيهم لتعود فتنحدر إليهم فى شكل ثمر ومُنىً .

أمران يجب ألاّ يغيبا عن عين الرجل الاجتماعى : الصالح العام والأنصاف . لأن الأول يعنى بالأفراد ككتلةٍ اجتماعية ، والثانى يعنى بهم كوحداتٍ لها . فالصالح العام يستخلص من الجماعة مزيَّتها ، والأنصاف يرد هذه المزية إليها . وبعبارة أخرى أن الأول يفسر علة قيام الجماعة ، والثانى يفسر علة بقائها ، أى لِمَ هي وُلدت ، ثم لِمَ هي تعيش .

وبدون واحـــدٍ من هذين الأمرين قد يقوم للجماعة وجود ككائن مادى ، ولكنها إذ ذاك تنعدم

ككائن معنوى ، أي أن خلاياها وإن جمعتها وحدةُ المكان تفقد وحدةَ الغاية والإحساس والفكر . ومثل هذه الجماعة إنما تأخذ شكل القطيع ، لأنها تفقد الصبغة الإنسانية التي تسبغ عليها كلَّ قيمتها .

فيا يا حبيبتى نفرّ من هـــذه المدنية الكاذبة التى ضاع فيها الفرد ، فى حين أُغدقتْ المزايا على جماعةٍ لا إحساس في الواقع لهـا ولا شيء في الأمر يعنيهـا .

أية قيمـة لعمري لنظام يحقق الصالح العـام للمجموع ثم لا يسحب هذا الصالح فى النهاية على الأفراد !

٤٦

الوجدان

الوجدان هو بقية الحب العالمي الذي كان فيما مضى يربط كلَّ ذرة في الكون بالأخرى ، والذي استحال فينا ، مع تفكك الكون نسبيًا ، إلى ما يشبه العقل الباطن .

فهو شعورٌ من الإنسان بأنه جزء لا يتجزأ من الكون ، وأنه عنصر شائع فيه غير مستقل بذاته عنه ، ومن ثَمَّ فإن حبه لنفسه لابد أن ينسحب ضِمْناً وعلى الرغم منه إلى الكون جميعه .

فهذا الحب العالمى كامنٌ إذنْ فينا بالطبيعة . وهو مختفٍ وراء إحساسنا الواعي ، ولكنه ما يزال له علينا قوة الإيحاء . وفى وسعنا إذا نحن أتحنا له

الفرصـــة لذلك ، أن نوقظه ونجعله يطغى على وعينـا .

ونموّ الوجدان يصحبه حتماً تضاؤلٌ فى الأنانية والقومية ، لأنه يوقظ فى الأنسان الحب الذى يَهِبُ نفسه للعـالم كله . فالوطنية فضيلة فقط من حيث القيـاس النسبي الذى يبني حكمه طبقـاً لاعتبارات الزمان والمكان ، ولـكنها رذيلة دون ريب إذا نحن قسناها بالفضيلة المطلقة . وما من إنسانٍ أو أمة بلغت شأواً من المدنية إلاّ وحلّ الحب العالمى منها محل حب الذات والوطن .

ووجدان الأفراد والأمم ينزع بها أبداً إلى هذا الاتجاه عن طريق الأيحاء ، ولـكنه يصطدم بالتقاليد التى ما يلبث أن يذللها مع الزمن . وليست عصبة الأمم لعبةً سياسيةً بقدر ما هى صدى عقل البشرية

الباطن الذى ما ينفكّ يوحى إليها بتحقيق فكرة الحب العالمى . بل هى لعبة الضمير ، خدع بها رجالَ السياسة ، فاستطاع أن يسخرهم فى تحقيق أحلامه بما راحوا يحسبون فيه خدمة لأنانيتهم . هى مناورةٌ بين الضمير والأنانيـــة انتصر فيها الضمير أو أوشـــك .

والسلبية التى يحارب بها « غاندى » الأنكليز ليست إلا حركة وجدانية ، لأنها ترمى إلى التأثير على المستبد من طريق إيقاظ وجدانه بتصوير الخطر المحدق بأخيه الإنسان تصويراً ينبه فيه حبه القديم له ، ومن ثَمَّ يحمله ذلك على التضحية بأنانيته لدفع المكروه عن أخيه .

وإنه لنى وسعنا إذا نحن قوّينا شعورنا بما ننطوى عليه من حب طبيعى للكون ، أن نستعيض

بالوجدان عن الشرائع ، وأن نحطم الجماعة القائمة على القوانين ، ونعيش فى فوضى ولكنها تكون أقرب مما نحن فيه الآن الى النظام .

كلما كثرت القوانين فى الجماعة كلما دل ذلك على انحطاطها ، لأن الحدّ من حرية الفرد وإخضاعه إلى تفاصيل دقيقة من النظام يذهب بمعنويته ويجعله وسط الجماعة التى يعيش فيها أشبه شىء بمجرد آلة فى مصنع . فالنظام الاشتراكى الذى رمى إلى صيانة حقوق الفرد من طريق المبالغة فى توثيق العلاقة القانونية بينه وبين الجماعة ، نظام يسلب بنفسه الفائدة المرجوة منه .

كذلك النظم الأخرى ليست على شىء كثير من الصلاحية ، لأنها وإن كانت تترك الناس إلى حد ما احراراً ، إلا أنها لا تخلّصهم من الأنانية

التى تترك المجال للظلم أوسع .

وهنا نتساءل ما هو النظام الصالح إذن للمجتمع ؟ فى رأيي أنه النظام الذى يستعيض بالوجدان عن القوانين فى تحقيق أحلام الاشتراكية ويجعل من العدالة سجيةً لا قانونا . وهذه هى وجهة التربية الحقة التى ينبغي أن نعِدّ لها الأجيال القادمة من الآن .

أمّا النظم التى تستعيض بالقانون عن الوجدان فى كل شىء كالنظام الاشتراكى ، والنظم التى تقوم على الاعتداد بالفوارق القومية والدينية وتعزل الأمة الواحدة عن بقية العالم « كالفاشيّة » و « النازيّة » ، فهى نظم فاسدة تتنافى مع المُثُل العليا للحياة .

فالكلمة إذن لما سيكون عليه المستقبل ، بين

شفتيْ الضمير . فهو الذي سيتولى فى هذه المرة تكييف الحضارة المقبلة . وفى سلبية « غاندي » وعالمية « عصبة الأمم » شيء من بوادر ذلك النظام .

ولكن ماذا عساه يكون مصير الأنسان إذا طغى فيه الوجدانُ على المحسوس فانكشف له الغيب ؟ إنه قد يستحيل شيئاً معنوياً ، وإذ ذاك تستحيل الحياةُ غيباً والأرضُ سماء . ثم يَقْوَى الحبُّ بين وحدات الكون فيجمع بينها ثانية وبذا تندمج الأرضُ في غيرها من العوالم وتقوم قيامة الدنيـــا .

الحب إذن بعض الضمير ، فلِمَ يا حبيبتى يلومنى العذّال على أنني وُهِبْتُ ضميراً فأحببتك !

٤٧

الفكرة

سوف نظل يا حبيبتى نعلّم الناسَ الحياةَ ولكن على غير جدوى . إنهم يرموننا بالجنون لا لشيء إلاّ لأن خيالَنا يسبق حياتَهم فيبدو في نظرهم خَبَلا .

ولكنْ يجب أن يسبق خيالُنا حياتَنا ، كى يتسنى لنا دائماً أن نقفز بحياتنا إلى حيث يكون خيالُنا ، وبذا نسير بالأنسانية إلى الأمام .

فلِمَ لا نوطن خيالَنا إذن على أن يُبدع لنا أبداً صورةَ الحياة الجديدة التى ينبغي أن نحياها فى غدِنا ، حتى لا تقف حياتُنا بوقوف خيالنا !

إنه يكون فى مقدورنا دائماً أن نحقق المثل الأعلى

من الحياة إذا حرصنا على أن يكون ماثلاً في خيالنا ، فإذا نحن فقدناه خيالاً فلابد أننا نفقده حقيقة .

وعداء الجمهور للفكرة الجديدة داء شائع قديم فيه . وسببه غالباً لا يرجع إلى عيبٍ في الفكرة ، وإنما إلى قصور في عقله المحدود عن إدراك قيمتها .

ولكن لا قيمة للفكرة إلا متى كانت من السمو بحيث ترتفع بالجمهور إلى مستواها ، لا أن تكون من الانحطاط بحيث تهبط بنفسها إلى مستوى الجمهور .

فالمبالغة في الاحتفاظ بالأمر الواقع دون ما مراعاةٍ لقيمته الذاتية ، إساءةٌ إلى الحياة التي تطالبنا أبداً بالوصول بها إلى الكمال ، الذي وإن

يكن ليس فى وسع جيلٍ واحد أن يدركه، إلا أن في وسع الأجيـــال المتعاقبة أن تحققه على التـدريج .

وكون الـكمال شيئاً لا نهاية له لا يعفينا من ضرورة السعي المتواصل لتحقيقه. لأن هذا التحقيق هو وحده الذى يخلق من الـكمال صورته الجديدة ثم يلهمنا مواصـلة السير نحوها ، وبذا تـكتسب حياتُنا صفة السعي المطّرد .

وإنه لفى إمـكان الجمهور إذا أدرك أن ما هو اليوم رأى الأغلبية كان بالأمس رأى الأقليـة ، أن يدرك أن ما هو اليوم رأى الأقلية قد يكون فى الغد رأي الأغلبية ، وإذن لاسْتقبل الفـكرة الجديدة برباطة جأش أكثر ممـا يقابلها به الآن .

إن الهوة بين عقلية العبقرى وعقلية الجمهور هى

وحدها التى تشوه جلال الفكرة العظيمة ، ولكن أليس من الممكن أن يقرِّب الحلمُ والأناة بين ما باعد بينه تفاوت الأذهان !

ما أجلَّ الخدمة التي يسديها الراعى إليك أيها القطيع الضال ، فلِمَ لا يكون جزاؤك له من جنس صنيعه إليك ! يلوح لي أنك فى آنٍ واحد جاهلٌ وجَحُود .

٤٨

الحرب

لِمَ هكذا تخشَيْن الحربَ يا حبيبتى ، وتكسو وجهَك الفاتن الهمومُ كلما تبينتِ شبحَها مقبلاً على الأبواب ! دعى نارَها الآن تستعر كيما تستنفد نفسَها فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة .

إنما تحمل الأزمات فى نفسها حلها . فشدتها تنبه إليها القومَ الغافلين ، وفى آن واحد تفقدهم رشدهم . لذلك فهم يرونها بعين الرجل البصير ، ويحاربونها بعزيمة الرجل الموتور . فكثيراً ما يكون الأغراق فى الظلم سبيلا إلى العدل ، والإمعان فى الاستعباد وسيلة إلى الحرية . وهذه المتناقضات التى تتوالد من بعضها البعض تكسب حياتنا النشاطَ الذى يحمل هو الآخر فى مدلوله معنى الحياة .

كانت الحرب وما تزال أعضل مرض اجتماعى عرفه التاريخ . وكثيرة ما هى المحاولات التى بُذلت لمنعها ، والتى كان آخرها « ميثاق بريان ـ كيلوج » وأهمها « عصبة الأمم » . وكثيرة ما هى أيضاً المقدمات التى تنبىء بقرب زوالها ، فسرعة

المواصلات ، وتبادل استعمال اللغات والمخترعات ، وارتقاء الوجدان العالمى ، ونشاط الرأي العام الدولي ، كل هذا يسهل على الشعوب المتنافرة سبيل التفاهم ، ويساعد على محو الفوارق بين القوميات والجنسيات المختلفة . ومتى تمّ لهذه الفوارق أن تزول فقد تهيأ الجو لتأليف دولة عالمية تنضوي تحت لوائها سائر الدول وإذ ذاك لا يكون هناك محل للحرب .

كل هذا جميل ، ولكن بالغةً ما بلغت هذه النبؤات وتلك المحاولات ، فهي لن تفلح فى القضاء على الحرب بقدر ما ستفلح فى ذلك الحرب نفسها ، والحرب المقبلة بالذات . ذلك أن ويلات الحروب فيما مضى كانت قاصرةً إلى حد ما على الجنود ، ومن ثَمَّ كانت إلى حد ما محتملة . أما الآن وقد

تطورت الحرب إلى حرب طيارات وغازات فإن بلاءها غير المحدود سيعم كافة الشعب ، وإذ ذاك سيجد رجال السلطة المدنية أن الاسترسال فى التغرير برجال الجندية وتسخيرهم في الحروب لم يَعُدْ بعد بالأمر الهين ولا السليم العاقبة ، لأن إعلان الحرب سيكون معناه أن كل فرد من أفراد الدولة يجب أن يكون جنديا مباشراً فيها .

فضلا عن ذلك فأن الحرب ستكون من الخطورة بحيث يصبح فى مقدورها أن تكتسح الحضارة إنْ لم يكن البشرية بأجمعها . ومن هنا ستتضامن جميع الدول — إنْ مختارة أو مكرهة — للدفاع عن كيانها حيال الحرب التى ستنقلب عندئذ عدواً مشتركا للجميع بعد أن كانت أداةً لأرواء غليل العداوات بينها .

من هذا وذاك يتضح أن الحرب إذ تعمل على بلوغِ أوجِهَا إنما تقتل نفسها بنفسها . فالحرب الآن تنتحر ، وسيكون هذا الانتحار هو الأول من نوعه الذى ستصفق له البشرية استحسانا . شدَّ ما يجب أن نرغب إذن فى أن تعجّل الحرب القادمة بالمجى. كيما يُسْدَل على مأساتها الطويلة ستارُ الختام ، بعد أن تكون قد ألقت على البشرية درساً قاسياً سوف يثيبها بلا شك وإلى الأبد إلى رشدها . هذه البشرية التي يلوح لى أنها من الحماقة بحيث أنها لا ترتدع حتى تعاقب وترهق بالعقاب .

٤٩

المساواة

شدَّ ما يغبطنى يا حبيبتي أنك من النبل بحيث

تساوين فى المعاملة بين الناس كافةً على اختلاف حِرَفهم !

إن مبدأ تقسيم العمل ضرورةٌ اجتماعية حتّمتها طبيعةُ الجماعة ذاتها ، كما أنه وُضع لمصلحة الجماعة .

لذلك لا ينبغى أن يتحمل الفردُ أعباءً خاصةً ما بسبب نوع العمل الذى يقع فى نصيبه ، متى كانت الجماعةُ هي التي فرضت عليه هذا النصيب ، ومتى كان هذا الفرض فى مصلحتها هى .

وإلاّ فلو فرضْنا أن الأفراد كافةً تنحّوْا عن الأعمال التى تجرُّ وراءها أعباء خاصة ، فأن ثمّةَ ثغرةً كبيرة فى الحاجات البشرية تظل مفتوحة .

كما أنه ليس من العدالة أن تضطهد الجماعة فرداً

بسبب عملٍ كان لابد إن لم يقع فى نصيبه أن يقع فى نصيب أحد .

ما انطوى نظام الكون على ظلم ولكنّ الناسَ هم الذين بعضَهم يظلمون. والذي يتأمل الكتلة البشرية يجد أن تِسْعاً وتسعين فى المائة من الناس أشقياء لأن الواحد فى المائة الذي تبقّى قد سامهم العسفَ والعـــذاب .

حقًّا إن وجدان العالم الآن لا يملأ فراغَ جسمه .

٥٠

الفراغ

أنا إنْ آثرتُ على العمل الفراغَ فلأن الفراغَ هو الغاية من العمل . لأنى بعد أن أعِدّ حياتى

من ثمرة عملى أحتاج إلى وقت من الفراغ لأشعر فيه بها . فالإحساس بالحياة هو الحياة ، لأن الوجود نسبيٌّ للأنسان ، فحتى يُعتبر شيء ما موجوداً فى نظره لابد أن يقترن وجودُه بشعور منه بذلك .

فأنا إذ أبذل فى العمل بعض نفسى فلكى أبقِى فى النهاية على نفسى . وإذ أبقِي عليها فلكى أشعر بها ، وإلا فما قيمة وجودى إذا لم يحمل فى نفسه الاحساسَ به ! إن الذين يرهقون أنفسهم بالعمل يعيشون أقل من عمرهم ، لأنهم يعبُرون الحياة كما يعبر النائمُ الحلمَ الغامض القصير لا أكثر .

على أن الفراغ لايفترض حتما الكسل ، لأنه فى وسعي أن أشْغله بغير العمل فأجني منه لهواً مستحباً ، أما الكسل فهو ألاّ أشغل الفراغ بشيء .

فغايتى من الحياة التى يجب ألاّ تتلاشى فى

رغبتى في العمل الذى ليس إلا سبيلا اليها ، هى أن أخلو إلى نفسى فأناجيها وأسبر غورها وأكشف عن أسرارها وأتبين مواضع الفتنة فيها . وأن أحكم صلتى بالكون وما اشتمل عليه من كائنات غير محدودة ، فأمزج روحي بروحه وأبادله الحب والعطف والولاء . وأن أكون دائبَ التفكير فى ماضىّ وحاضري ومستقبلى كى أصل حلقات تاريخى وأحسّ بوحدة حياتي . وأن أتذوق كل ما أصبو إليه من جمال وفن ورياضة وفكاهة لأؤدى واجبي نحو نفسى وأحقق الغرض من وجودى .

فلئن أخذت من عملى لفراغى ، فما ذلك ياحبيبتى لأنى بليد ، وإنما لأنى لا أريد أن أكون أحمق .

٥١

فرصة العمل

لِمَ نلوم هذا المتسوِّل العاطل، ولا نلوم الهيئةَ الاجتماعية لأنها لم تقدم له عملا !

إن الفرد كيما يساهم في ثمرات الأنتاج قد تضامن مع الجماعة. ولكن لمّا كانت ثمرات الأنتاج لا توزَّع إلاّ على من يشترك فى العمل الذى يأتي بها، فأن حق الفرد في المساهمة فيها لن يولد إلا إذا ساهم أيضاً فى العمل. فالجماعة من جهة تحتم على الفرد أن يساهم فى العمل كيما يحق له أن يساهم فى التوزيع، كما أن الفرد من جهة أخرى كيما يتسنى له أن يساهم فى التوزيع يحتم على الجماعة أن تدعه يساهم فى العمل.

فمن ذلك نرى أن التضامن الاقتصادى للأفراد يتولد عنه واجبان ، واجبٌ على الفرد وهو أن يعمل ، وواجبٌ على الجماعة وهو أن تدعه يعمل . والأول يفسر قبولَ الجماعة إياه كمساهِم فى ثمرات الانتاج ، والثانى يفسر قبوله هو الانضمامَ إليها . والخلاصة أن الفرد ليس هو فقط الملزم بأن يتقدم للعمل ، وإنما الجماعة أيضاً ملزمة بأن تتقبل منه ذلك .

يترتب على هذا أنه إذا حدث أن بعض الأفراد — طمعاً فى استزادة أرباحهم — اختصوا أنفسهم بنصيبٍ مبالغٍ فيه من العمل ، فاغتصبوا بذلك لأنفسهم بعض فرص العمل من غيرهم ، ثم سكتت الجماعة عن ذلك ، فإنها تكون قد قصّرت فى واجبها إزاء من وقع عليهم الاغتصاب .

فالجماعة يتعين عليها إذن أن تشرف على توزيع فرص العمل بين الأفراد ، لأن اغتصاب فرص العمل إن هو فى الواقع إلا اغتصابٌ لثمرات الانتاج التى هي نتيجته ، فحماية الثانية يصبح لغواً إذا لم تسبقه حماية الأولى .

وإذا كان من حق الجماعة أن تحمى للأفراد ثمرات انتاجهم ، فما من أحد ينكر عليها حقها فى حماية العمل الذى هو موجدها . وحقوق الجماعة هي لها بمثابة الواجبات لأنها إذ تهمل فى التمسك بها إنما تفوِّتُ مصالح الأفراد المسئولة قِبَلهم . إن الأفراد ما تضامنوا إلا ليعيشوا ، فيجب أن نكفل لهم العيش كى يظلوا متضامنين .

حقيقة إن توزيع فرص العمل على الأفراد كافة يتبعه انخفاضٌ في منسوب ساعات العمل للفرد

الواحد ، وبالتالي في ربحه . ولكنّ هذا الانخفاض سيكون شاملاً ، لأنه لن يكون مقصوراً على طائفة دون أخرى إلا حيثما يكون العمل مركّزاً فى يد هذه ومنعدماً من يد تلك . والفقر إذا عَمَّ تجرّدَ عن صفته لأنه — وهو نسبيٌّ — لا يُتصور وجوده إلا إذا قورن بحالة غِنىً . فالمساواة فى الفقر غنًى ، كما أن المساواة فى الظلم عدل .

فضلا عن أنه خير للجماعة أن تعيش فى حالة متوسطة من أن يكون نصفها أثرياء ونصفها عاطلين ، لأن معنى هذا التقسيم أيضاً أن نصفها مهددون ونصفها أشقياء .

على أنه مهما ربحنا من ثرائنا فلابد أننا كبَشَرٍ نشعر ولو من طرف عقلنا الباطن بشيء من تأنيب الضمير على اغتصاب حقوق إخوانٍ لنا فى الأنسانية .

وهذا الشعور وحده كفيلٌ بأن يقوّض كل السعادة الموهومة التى يزيِّفها لنا ثراؤنا .

ها أنا أعطى يا حبيبتي هذا العاطلَ الذى يطارده الناسُ ثمنَ الحلوى التي كنت سأشتريها لك . أمّا أنتِ ، فيكفى أن يكون لك قلبي .

٥٢

العزوبة

لكى نظل حبيبين ، يجب ألاّ نصبح زوجين . لأننا إنْ أصبحنا زوجين ، فسوف لا نظل حبيبين .

أنا وإنْ أكن ركّزتُ فيك هواي ما أزال حُرّ العاطفة . أنزع أبداً إلى استقبال الجديد من الجمال

وأفتح له قلبي أينما كان . والجمال الفرد وإن تنوّع في مظاهره لن يتجدد . ففي وسع العيون السوداء أن تبعث من المعانى ما لا حدّ له ، ولكنها لن تكون قادرة على أن تستعير من العيون الزرقاء لونها .

والزواج لن يُتَصور إلا فى جوٍّ يسود فيه تقييد العاطفة . لأن الزواج يفترض الأخلاص المؤبد ، وهو ما لن أقوى عليه ، لأنه على فرض أننى تكلفت الأخلاص الظاهري ، فأننى فى أعماق نفسى سوف أشتهي وأتطلع إلى الجمال المنبثّ هنا وهناك خارج حدود زواجى ، ولذا فأننى أخون . . . أخون بعقلى . ومن هنا تتضح الهوة السحيقة التى تفصل ما بين الزواج وطبيعتى .

ولقد علمتنا الحوادث أنه حيثما وُجد بين طبيعة الأنسان والنظام الذى يحكمه خلاف ، فأن واحداً

من الاثنين لابد أن يحطّم الآخر . فالانسجام بين الأنسان وقانونه لازمٌ لزومَ هـــذا الانسجام فى كل شىء .

بيد أن كل هذه الاعتبارات تتلاشى إذا نحن ظللنا حبيبين ولم نتزوج . لأن الحرمان الذى يشوب الحب يقوم مقام التجديد الذى تتطلبه حرية العاطفة ، لأنه أبداً يترك أمام الحبيب أسراراً فى حبيبه لم يكشفها بعد ، فهو من جهله بكنه جماله يظل يستقبل منه فى كل يوم شيئاً جديداً .

٥٣

الزواج

ولكن ... ماذا علينا لو نتزوج ! إن التناقض الذى تصطدم به الأنظمة فى حياة الفرد يستحيل

انسجاماً فى حياة الجماعة . فحرية الفرد تؤدى إلى الفوضى بينما الجماعة تنشد النظام .

وقد خُلِقَ الأنسان فرداً ولكن ليعيش داخل جماعة . فحياة الجماعة مكملةٌ لحياة الفرد ، والفرديةُ نفسها تنقوض بمجرد أن تنقوض الجماعة .

وما دامت هناك حياة أخرى تزاحمنا فى حياتنا الفردية وتكملها ، وهى حياة الجماعة ، فمحال أن يكون في طاقتنا أن نطلق الحرية لفرديتنا اللهمّ إلا فى الحدود التى تسمح بها هذه الجماعة فقط .

لذلك فما من بُدٍّ أن نضحي — إنْ طائعين أو مكرهين — بجزء من هنائنا لنحتفظ بالجزء الباقي منه ، بدلا من أن نطمع فيه كله فنفقده كله .

إنّ أطماعنا الفردية لا تحمل فى ذاتها ما يحققها ،

ولا بد لها من هدف تتفاعل معه لكى تنتج لنا اللذة ، وهذا الهدف هو الجماعة . ولكنّ هذا الهدف هو نفسه من جهة أخرى أطماعٌ لسوانا تقف أطماعُنا منها موقف الهدف .

وعلى ذلك فأن أطماعَنا الفردية يجب أن يتلاشى نصفُها فى الهدف الذى تصوَّب إليه لكى يعود إلينا نصفُها الآخر محقَّقاً . وإلا فلو تشبثنا بها كلها فأخذنا من الجماعة ولم نعطها ، فأننا نحطم بذلك الجماعة ونحطم معها الهدف ، وإذ ذاك تستحيل أطماعُنا أحلاماً لا تلقَى ما يحققها .

هيا بنا يا حبيبتى إذن نتزوج . ولْيَمُتْ حبُّنا لتحيا الجماعة ، ونحيا نحن معها .

٥٤

حرية المرأة

إذا رُزقْنا طفلةً فسوف ندَعها حرة. ليس لنا — والمرأة إنسانٌ مثلُنا — أن تنكر حقها فى المساواة الاجتماعية بنا. وما من وجهٍ للتفرقة بين حرية المرأة وحرية الرجل فى الكَمّ أو النوع ما دام المصدر الذى يتلقى عنه كل منهما حريتَه واحداً وهو صفة الإنسان.

وليس فى معنى التضامن الاجتماعي الذي نقيد الحريات باسْمِه ما يسمح لنا بالحدِّ من حرية المرأة فى أمر لا نحدُّ أيضاً من حرية الرجل منه. حقيقة ان الحدَّ من الحرية فى ذاته أمرٌ لا مندوحة عنه لتنظيمها. ولكنه إذا لم يطّرد بالنسبة للجميع

فأنه لا يلبث أن يفقد صفته كمنظِّم لها ، لأنه بسماحه لبعض الحريات بالطغيان على البعض الآخر إنما يمهِّد إلى الفوضى التى هى نقيضة النظام .

كما أن تقييد الحرية لن يكون مشروعاً إلا إذا وُضع بحيث يتساوى الأفراد كافةً فى تحمُّل الأعباء التى تترتب عليه . لأن الفرد إذ يقبل الاندماج في الجماعة إنما يفعل ذلك على أساس أن يربح منها بقدر ما يخسر في سبيلها . فإذا هي لم تشأ أن تسلِّم بهذا الأساس ابتداءً ، انتفت بذلك علّةُ التضامن الاجتماعى وفضَّل الفرد أن يعيش مستقلا . وهذا الشعور هو في ذاته تصدُّعٌ — وإن يكن معنوياً — فى بنيان الجماعة .

ولا يبرر موقف الجماعة عندما تفرق بين أفرادها فى المعاملة ، أنها ترمى إلى تحقيق مصلحة لا يمكن إلا

أن تصيب فريقاً منها دون آخر. فمصلحة الجماعة لن تعنى الفرد إلا إذا وُضعت بحيث يمكنه أن يساهم فيها. وكل نظام من شانه أن يسمح لبعض الأمة أن يستغل ابتداء بعضها الآخر يقضى على مبررات وجود ذلك البعض الآخر فيها.

إنما تقوم الجماعة على أساس التضامن الاجتماعي. ومن مدلول التضامن الاجتماعى أن تتساوى الأفراد فى كافة المزايا والأعباء التى هناك دَخْلٌ للجماعة فيها. فالجماعة التى لا تكفل لأفرادها هذه المساواة، إنما تفقد علة التضامن الاجتماعي، وبالتالى تفقد علة وجودها.

فنحن، من غير أن نخلّ بروح الفكرة التي تقوم عليها جماعتنا، لا يسوغ لنا أن نضع قيوداً على الحريات يتضح عند تطبيقها أنها تفرض ابتداء

مستوًى اجتماعيًا معيناً على المرأة أو تضعها فى مركز المغبونة فينا أو المحرومة من بعض فرص الحياة المباحة لنا .

على أن تمتُّع المرأة بالحرية مفيدٌ للمجتمع . لأن انطلاقها معنا فى الحياة يملؤها حيوية وبهجة ، وينبِّه فينا الفضائل الخاملة التي نبعثها عندئذ لنتوسل بها إلى تحقيق ميلنا الغريزى نحو اجتذابها . إن الجماعة التى لا تنبتُ فى أنحائها المرأة كالحديقة التي لا ينبت بين أعشابها زهر .

٥٥

عمل المرأة

وسوف ندفع بابنتنا إلى ميدان العمل ، وإنى أختار لها من الأعمال أن تكون فنّانة .

لن تكون المرأة حرة إلا إذا اشتركت فى العمل العام واستقلت عن الرجل اقتصادياً . ذلك أنّ عجز المرأة عن الكسب يجعلها تلتجيء إلى الرجل فى إشباع حاجاتها الاقتصادية ، ومن ثَمَّ تصير عبدةً له من هذه الناحية . والاستعباد الاقتصادى يجرُّ إلى الاستعباد الاجتماعى ، لأن شخصية الأنسان المعنوية إنما هى ظلٌّ أو صدًى لشخصيته المادية . فكل ما يهدد الثانية فهو يهدد الأولى .

وليس ثمّة خوفٌ من هذا الاستقلال الاقتصادى على الرابطة الزوجية التي ستظل رغم ذلك مكفولةً بدوافع أُخَرَ أدبية وقلبية ، ولكنها دوافع لا يخشى منها على حرية كِلاَ الزوجين لأنها متبادلة ، فهى تسلب من حرية كل منهما بقدر ما تعطيه من حرية الآخر .

وليس لنا أن نستند فى الحدّ من حرية المرأة فى العمل على أن ذلك يقابله أيضاً حدٌّ من حرية الرجل يتمثّل فى التزامه الإنفاق عليها . لأن هذا الالتزام هو فى ذاته صورةٌ من استعباد الرجل للمرأة ، ما دام الانفاق من جانب الأول يفترض مقابله الحاجة من جانب الثانية . فهذا الالتزام ليس إلا مقدمةً لاستلاب حرية المرأة ، كما أنه فى الوقت نفسه نتيجةٌ له ، لأنه على فرض عودة الحرية إليها وتمكّنها من الكسب فإن الانفاق عليها من الرجل يصبح ولا محلَّ له .

على أن تقسيم العمل على أن ينفرد الرجل بالعمل العام وتنفرد المرأة بشئون البيت مجحفٌ بالمرأة ، إذا لاحظنا أن الرجل فى الوقت الذى يختار فيه لنفسه القِسْمَ الذى يُغنيه عنها يترك لها القِسْمَ الذى

يفقرها إليه .

ومن جهة أخرى فإن العالم دائبُ العمل على بلوغ مَثَلٍ أعلى قد جعل منه لنفسه غايةَ الغايات . فعدم قيام المرأة بنصيبها من العمل فيه تضييعٌ لنصف جهود العالم الذى تؤلف المرأة نصفه . وتخلّى العالم عن نصف جهوده يضاعف الوقت الذى يتعين عليه أن يقطعه لكى يصل إلى هذا المثل ، وبالتالى يؤخر البشرية نصف الطريق .

وأخيراً فإن طوارىء الحياة ذاتها توجب على المرأة أن تُعِدّ نفسها للعمل . إذ من النساء من لا تصلح للزواج أو لا ترغب فيه . ومنهنّ من تتزوج ولكن لا يستقر لها الزواج لسببٍ ما كموت زوجها أو انفصالها منه . هذه وتلك يجب أن تتسلح بالعمل ، وتتسلح به من بدء الحياة ، لأنها

لا تدري بالضبط ما إذا كانت ستلتقى بهذه الطورى ولا متى ستلتقى بها .

٥٦

رؤيا

بالأمس أغفيتُ فرأيت فيما يرى النائم أننا جالسيْن إلى بحيرةٍ مياهها آسنة ، كأنما قد خَيَّمَ على سطحها الذى لا أثر لارتعاش الموج فيه سُباتٌ عميق .

وقد قامت عليها شجرةٌ هائلة يدل منظرها المتهدم على الهِرَم ، ويلوح من شحوب أوراقها الحزنُ والأسى . وقد تكاثرتْ عليها الغِربان التي ما فتئتْ تروح وتغدو بين أغصانها فى إعياءٍ وضجر كأنما تنوء بِهَمٍّ ثقيـــل . وكانت تنبعث منها بين الحين

والآخر أصواتٌ خافتة حزينة تشبه فى لوعتها البكاء وفي عمق نبراتها الأنين .

وقد أحاطت بهذه البحيرة صحراء مترامية الأطراف لا يدرك البصرُ مداها ، تقوم عليها تلالٌ قد تبعثرتْ فى أنحائها المغارات والكهوف فاغرةً أفواهها كأنها قبورٌ منبوشة أو سباع جائعة .

ولم يكن هناك أثرٌ لنباتٍ أو حيوان اللهمّ إلا ضبعٌ مريض قد أسند ظهره إلى صخرة مُلْقاة ، وجعل يتلفّت يُمنةً ويسرةً فى بطءٍ وتثاقُلٍ بنظراتٍ مِلْؤُها التبرّمُ والانقباض .

وكان الوقت قُبَيْلَ الغروب ، ومع ذلك فلم يكن للشفق أثرٌ فى الأفق . وكان الجو ملبّداً بلونٍ أدكن يشبه في قتامِه الغيمَ الذي يسبق

نزول المطر .

وكنتُ فى جِلستى دائمَ الأطراق إلى البحيرة أحاول أن ألحظ فى مائها الحياةَ على غير جدوى . وكان لأنين الغربان صدًى يكاد ينهلع له قلبى ، ولصفرة الأوراق رهبةٌ تبعث خاطرَ الفناء فى نفسى .

وكنتُ كلما نظرتُ إليك يا حبيبتى ألفيتك واجمةً كالتمثال الصامت ، وقد تحجّرتْ عيناك وتصلّبتْ أعضاؤك كأنما كنتِ تشخَصين إلى الغيب وتحاولين عبثاً البحث عن شىء تائهٍ فيه .

ثم حانتْ منى التفاتةٌ إلى إصبعي فأذا بخاتم الخطوبة قد عَلاه الصدأ ، وذهب عنه ذلك الوميض الذى كان يتوهج فيه من قبل . فاستولى علىّ إغراقٌ طويل ، وكأنى بنفسى أفتّش فيها عن ذكرى سحيقة

غابت حوادثها عن عينيَّ ومَضَتْ إلى حيث يمضى كل شيء .

ثم قمنا فتبادلنا النظرات بعيون كأنها ما تعارفت من قبل ، أو كأنما نُسِجَ عليها من النسيان حجابٌ كثيف . وسلكتُ طريقاً وسلكتِ آخر ، ثم غاب الطيف عن منظرنا ونحن نشق طريقنا وسط الصخور .

فصحوتُ من نومى وقد أخذ منى التشاؤمُ كلَّ مأخذ ، لأننا نحن المحبين نُلْهَم ما فى الغيب بقوة نفوسنا ، فنرى المقدَّر الخافى كأنه حقيقةٌ ناصعة .

ألمْ أقل لك يا حبيبى أن الحب عندما ينقلب زواجاً ينتحر ! إنى أخشى أن يكون ذلك الذي

تمثّلَ لي في تلك الرؤيا المفزعة جنازةُ حبنا ...
فاللهمّ رحمتك !

٥٧

نسيانه

قد تحقّق الحُلُمُ المُروّعُ أو أوشك . بدا على عينيك النسيانُ ودبّ الفتورُ فى قلبى . والتقينا ، فلا العيونُ متعارفةٌ كعهدي بها ، ولا القلوبُ خافقةٌ كما كانت .

فليت شعري هل كان حبنا سرّاً فسّرَهُ الزواج فتلاشى ، وأمْنِيَةً حقّقها فماتت ! لكمْ حذّرتْنا هواجسنا الزواجَ ، فأبَى حبُّنا وحكم على نفسه بالموت . بل أبت علينا الطبيعةُ ، لأن الطبيعةَ ألدُّ أعداء الدوام . ومَضَتْ تزيّنُ لنا

شهواتُنا أن نُغْرِق فيها، لكى نقضى بأنفسنا عليها .

قلتُ لكِ ان قلبي يحدثنى بأن الحب إذا دخله الزواجُ قضى عليه ، وان الزواج إذا دخله الحبُّ لن يعيش فيه ، فما أصغيتِ لى ، ولا أصغيتُ أنا لقلبى .

وها نحن الآن نشهد بأعيننا جنازةَ حبنا ، وندفنه بأيدينا في مقره الأخير . فما كان أغنانا عن أن نقتل بأنفسنا أحَبَّ الأشياء إلينا ، ثم نبقى من بعدها نرتعد من منظرنا الآثم إلى الأبد .

ليتنا الآن نعود كما كنا حبيبين ، يهتاجنا الحرمانُ فيخلق فينا الغاية ، وتحلّق فى سمائنا الغايةُ فتغمرنا بالأحلام ! ولكن ، هيهات أن يتفتح للهوى

قلبٌ أغمض عينيه النسيان !

والآن يا حبيبتى وقد انتهى ما كان بيننا ، فوداعاً ... وداعاً إلى الأبد ورَحم الله عهداً كنّا فيه حبيبين .

٥٨

الدوام

كل شىء على الأيام زائل . انقضى كل ما كان وَجَنَحَتْ للرقاد صبابةٌ استبدّتْ بالفؤاد دهراً فأقامتْ الدنيا وأقعدتْها . ومَضَتْ كالحُلُمِ أيامٌ حَدانا فيها موكبُ النيل ، وليالٍ طالَعَنَا فيها وجهُ القمر . وعَفَتْ ، وعفتْ معها آثارُنا ، وما يزال النيلُ يشقُّ مجراه وسط الحقول ، وما يزال القمرُ يغمر بأشعته المروجَ المخضلّة .

وعمّا قليلٍ تحين ساعتُنا فنلحق بالذى مضى من أيامنا ونذهب معها إلى حيث لا عوْد يُرجَى ، وسوف يظل النيل يجرى كما كان ، والقمر يطلع كعهده ، ليعيدا تمثيل المهزلة مع غيرنا .

إن التماس الدوام مستحيلٌ مع وجود الزمن . فالزمن حركةٌ مطّردةٌ من الوجود والعدم يضيع البقاء ما بينها . وما الأنسانُ إلا كميةٌ زمنيةٌ تفقد نفسها على التوالى إلى أن تتلاشى أخيراً بالموت .

ولكن عَلامَ الجزعُ ، ولِمَ يقلّل من شأن الحوادث عندنا أنها زائلة ! ما دمنا أنفسنا زائلين فليس في وسعنا أن ندرك القيمة إلا في الشيء الزائل . إننا نفرغ مع كل شيء ، وكل شيء يفرغ معنا ، وهذا الانسجام الذي بيننا وبين الحوادث يقوم لدينا مقامَ الدوام .

فهيّا لننطلقْ فى سبيل البحث عن اللذة المؤقتة ، ولْنعِشْ للساعة التى نحن فيها . فقط ما السبيلُ إلى التخلص من ذكرياتٍ رسبتْ بقاياها بالفؤاد وما يزال وخزُها يقضُّ مضاجَعنا بين الحين والحين ؟ لا سبيل . ومن هنا ارتَسَمَ الكونُ فى أعيننا بطابع الأسى ، وغلب على مزاجنا الحزنُ والحنين . أبهجُ الأشياء وأقربها إلى المرح ، تزفُّها إلينا مشاعرُنا فى إحساسٍ يشبه اللوعة ، ونغماتٍ تشبه النحيب .

٥٩

الفن

أيُّ غبارٍ على الحب حتى راحت تضطهده الناسُ وترميه بأقبح الصفات ! ورحتِ أنتِ تجارينهم فيما يدّعون كذباً وبهتاناً ، وتلحّين علىّ

فى طلب الزواج خوف العار ، فكان أن أجبتُك إلى طلبك وأشركتُ معك يدى الأثيمة هذه فى قتل حبى !

ألولا الحب كان يتاح لنا أن نتذوّق ما تذوقناه من مُتَعٍ دونها نِعَمُ الخلود وأمانٍ دونها أحلامُ الصبا ! ألولاه كان يمكن أن ينطق شاعرٌ بقصيدٍ ، أو يشدو مُغَنٍّ بِنَغَمٍ ، أو يَخُطُّ رسّامٌ لوحـــة !

يفتح الحبُّ مغاليقَ النفوس ويكشف عن أسرارها الفاتنة ، فما تلبث أن تتفجّر علينا ينابيع فيّاضة ، ما أن تلتقى فينا بمزاج مصقول حتى يتولى تنسيقَها وتهذيبها ، ثم يَهِبُها قوةَ الأفصاح عن نفسها فتخرجَ للناس فنًّا يسحر الألباب .

إن الحب نصفُ الفن ، والذوقُ المتّسِق

نصفُه الآخر . والفن خلاصة الروح ، والروحُ خلاصة الوجود ، لأنها جزء من إرادة الله . لا جمالَ في الدنيا ولا بهجة من غير حب . وإذا ما قُدِّر لبقعةٍ من الأرض أن تقفر منه ، طلعَتْ عليها الشمس ، ولكنْ غاب عنها نورُ الآله .

هي الحبُّ لهواً فهو لهوٌ لابد منه ، ولم في بعض الشر من فائدة ! يميناً لقد كنتِ في إلحاحك عليّ مخطئةً ، وكنتُ في إذعاني لك عجولاً ، ولكن ... جَلَّ يا حبيبتي من لا يخطىء .

٦٠

رسيمة

مَرِحَةٌ كالطائر روحُها ، مُوحِشٌ كالسجن جسمُها . كلما هَمَّ بالغِناءِ قلبُها لم يرجِّع صداه

صدرُها . وإذا حنَّتْ إلى الغاب نفسُها لم يُعِنْها على الطيران ريشُها .

ساءلْتُ عقلى ما خَطْبُ الفتاة وأى ذنبٍ يا ترى ذنبُها ؟ قال دميمةٌ كى ينفرد بالجمال غيرُها . آية الكون أنْ تميِّز الأشياءَ أضدادُها .

قال قلبى ، إذنْ هى الفداء ، وليت شعرى ما قيمة الآيات إذا لم يشمل الناسَ خيرُها !

قال عقلى ، أراك ترثى لها فلِمَ لا تحبُّها ؟ إذا عدَلَ الأنسانُ انمحى من الطبيعة ظلمُها .

قال قلبى ، ما بيدى أنا المسيَّرُ فى الكون حبُّها . وأنانىٌّ ما أنا ، فكيف أضحّى بالنفس كيما أقيلها !

قال عقلى ، على أنها لا تستحق الرثاء أمَا

تراها ناقمةً على القدَر لا ينفكّ يجرى بالشكاية دمعها !

قال قلبي ، إنْ تكُ خاطئةً فإلى تكوينها يرجع خطؤها . ولو أنصفْتَ لأحلَلْتَ الأشفاق منك محل لومها .

فصدّقتُ قلبى . وكذّبتُ عقلي .

٦١

الفضاء

أحقًّا قد نسيتُ دنياىَ فنسيت معها الأملَ والحب ، وخمدتْ فى نفسى الشهواتُ العاتية ما خلا شهوتي إلى فنى !

فيما مضى كانت الدنيا تفتنى ، وكانت مباهج

الحياة تأسر لبي ، وتخلّفُني كفراشةٍ حائرة مبهوتة حِيَالَ شعلةٍ من نور . أمّا اليوم فلم أعد أراها إلا كما أرى الحُلُم الغابر ، ولم يبق لها فى نفسى سوى ذكرياتٍ خامدة دفنتُها فى جانب مهمَلٍ من فؤادى .

ولكن عَلامَ التضحية وماذا عساه يكون فنى هذا الذى رضيت بأن أحطم دنياى فى سبيله ! أية قوة خارقةٍ تلك التى جعلتني أميت فى نفسى شهواتي الدنيوية ، وأستعيض عنها شهواتٍ أُخَرَ روحية تنزع إلى الخلْق والابتكار وترى السعادة فى الألم ! بل أية قدرة تكمن فى الفكرة فتجعلها تهيمن على الإرادة ، فإذا الإرادة تهيمن على النفس ، وإذا كل شيء — حتى الإرادة والنفس — مسخّرٌ للفكرة !

يُخيّل إليّ أن الفنان يرى أنه الدنيا كلها . وعلى ذلك فما من بأس عنده أن يضحى بنفسه ما دامت الدنيا باقية . وهو لابد مستفيدٌ من وراء ذلك . مستفيدٌ لا بذاته المحدودة ، وإنما بذاته المنبسطة على الكون ، ذاته الكامنة فيما وراء الذات .

هو يحب الحياة . ولذلك هو يضحي بنفسه ، بل يموت ، ويعتقد أنه بذلك يخدم الحياة . وهذا حق ، إذ كيف يُتصور إطّراد الحياة إذا انتفى الموت ! فَلِمَ لا يكون فيه نزوعٌ إلى الموت ما دام الموت عنصراً من عناصر الحياة !

وبعد ألسنا نكدّ ونفكر ونحب ونتناسل ، ونحن إنما نودِع في كل مرة من هذه جانباً من حياتنا ! إننا لا نفتأ ننزع إلى الخلْق ، ولكن لا يكاد يتم لنا ذلك حتى نموت ، لأننا نكون قد

أودعنا أنفسَنا فى خلْقنا . نحن نحب الحياة ، ومن أجل ذلك قد أحببنا الموت .

الواقع أن الأنسان ليس وحدةً مستقلة تملك ذاتها . وما كان الواحـــد منـا فى وقتٍ من الأوقات ابن يومه ، وإنمـا هو موجة ورثت نفسها من الأجيـال ، وستورِّث نفسَها للأجيال . فهو ذرةٌ سابحة فى الكون لا تدرى مكانها منه لأنها جزء شائع فيه .

وهذا الشعور الذى يفسر مركزنا من الحيـاة موجود فى عقلنا البـاطن ، وهو الذى يدفعنا إلى الخدمة العـامة والتضحية في سبيلها . وهو يقوَى عند الفنانين إلى حد أنه يكتسح أمامه ما عداه ، فمـا يلبث الفنان أن يهب نفسه لهذا الشعور ، ثم يهب هذا الشعور للحياة .

وإنّا لَنعجَب كيف يهب الفنانُ نفسَه للدنيا بينا الدنيا تفلت منه! ولكنّ الواقع أن الدنيا تفلت منه لتعود إليه ممثّلاً فى شخصها. وأن شهواته قد تموت فيجحد الحب والمال والأسرة والذات، ولكن بعد أن تكون قد تنبهت فيه الشهوة التى تتحكم فى الشهوات، شهوة الخَلْق. وشهوة الخلْق هذه كامنةٌ فينا لأننا نحن البشَر لسنا إلا بعضَ الكون، وما ينفكّ الكون — بأذن الله — يَخلق.

ولكن أليس من الأنانية أن يضحى الفنانُ بذويه فى سبيل فكرته؟ كلا، لأنه إذا كانت كل الأنانية أن يؤثر الأنسان نفسه، فأن من بعض الأنانية أن يؤثر غيره. فالفنان يتجاهل حدودَ المكان والزمان ويتخطى القوميـــة والأسرة بل

الذات ويبسط نفسَه على الأنسانية كلها . وهو يذهب فى ذلك إلى حد أنه يطوِّح بهذه النفس إلى حيث تلتقى ببداية الأنسانيـــة ونهايتها المجهولتين . وبالاختصار أن الفنان يرى العالميةَ دينه .

وداعاً يا حبيبتى إلى حيث أودّع كلَّ شىء وأتفرغ إلى فنى . لقد سلاكِ القلبُ الذي جُنَّ بكِ دهراً ، ومضى الآن بمضىّ الزمان عصرُك .

٦٢

الشعور

كم من حقائق أومنُ بها ، يوحى إلىّ بها شعورى ، وإنْ يكن يعجز عن إقامة الدليل عليها عقلي ! فماذا عساه يا تُرى يكون ذلك الوحيُ الذي نأبى إلا أن نكذّبه فيأبى هو إلا أن نَصْدُقَ

نبـــؤاته !

ولكن عـــلامَ العجبُ والنكرانُ وفى احساساتنا الفذّة دليلُ روحانيتنا وما تنطوي عليه من إلهامٍ ونور ! لكم يضللنا العقـــلُ المريبُ فنشق ، ولكننى ما أحسب أن بصيرتنا تخطىء . ذلك أنها لن تُعوِّل على منطق قد تفلتُ قضيتُه من يديها وإنما على قوتها السماوية الخارقة التى تتملّ الحقائقَ من الغيب الذى ليس دونَها وإياه حجابٌ ، ثم تنقلها إلينا صادقةً بريئةً كما هى .

كثيراً ما يخدعنى منطقُ عقلي بما يخالف وحيَ شعورى فأوشكُ أن أقتنع متورّطاً ، ولكن سرعان ما أثوب إلى نفسى فأكذّبُ عقلى وأصـــدّق شعورى . عقلى ! كم أعُقُّ عقلى ! لأننى أرتاب في عقلى .

٦٣

السر

كلما قاربَت الحياةُ النهايةَ تملّكَت الأنسانُ رغبةٌ في تفهُّم الكون الذى أصبح وشيك الاندماج فيه .

وما الحياة إلاّ كأسٌ من الشراب تُضيعَ صوابَنا ، فتتقطع صلتُنا بالكون إلى حين . وكلما بَعُدَ الشوطُ الذى قطعناه منها وأخذ يدبُّ فينا الفناء ، أشرفنا على الأفاقة وبدأنا نستأنف صلتَنا بالكون شيئاً فشيئا ، حتى إذا ما استعدنا عقلنا نهائيّاً بالموت ، عدنا أوثق ما نكون صلةً بالوجود ، وأعلم ما نكون بأسراره التى عِشْنا رهنَ احتجابها عنا .

وما المشاعرُ الخفيَّـــة التي تنتابنا وتزاحم في تصوراتنا المحسوسَ ، إلا بقيةً من ذلك العقل ما تفتأ تعاودنا بين الفينة والفينة ، وترجِّع في نفوسنا صدى معرفتنا القديمة بالكون .

وكلما جرّد الأنسان نفسَه عن عَرَض الحياة ، كلما أشرف على الأفاقة وطغى فيه الألهام على قوة الأدراك للمحسوس ، فما يلبث أن ينكشف له السر ويتملكه اليقينُ بأنه جزء لا يتجزأ من الوجود ، وأنّ ثَمَّةَ حبًّا عنيفاً متبادلاً يربطه وإياه .

فعَلامَ الجزعُ إذن من الفناء ونحن ما نفنَى وإنما نستأنف وجودَنا مع الكون ! حياتُنا سكَراتٌ تنتهي بأفاقة الموت .

٦٤

المولى

متى يا رفاق نلتقى فى الغيب فتجمعُنا الصُّدف التى أَلَّفَتْ بيننا فى الدنيا ! لقد رحلتم عني واحداً إثْرَ واحدٍ وتركتمونى نهباً لنار الحنين وحدى . أرى الحياةَ وقد أقفرتْ منكم غريبةً علىَّ ، وترانى وقد تَبَرَّمْتُ بها غريباً عليها .

ما أكثر ما تجمعُ السماءُ نفوساً كانت بالأمس تحيا بيننا ! فيا قدَّسَ اللهُ مكاناً أضحي للأرواح الزكية مَرَاحاً ومَغْدَى ! طُهِّرَتْ فيه من رجس المعاصى ، واستعاضت عن ظلمة الضلال بنور الهـــدى .

يا نفوساً شَفَّها الحرمانُ فغادرتْ الحياةَ

ظمأى ، ليت الذى أختاركِ إلى جواره يعوضُك ما فاتك فى الحياة من المنى ! وأنتِ يا نفس عجّلى فأن رفاقك الأبرار لَيرقبون هناك فى لهفةٍ قدومك .

٦٥

المصير

فى أغلب القصص الغرامية التى يضعها الروائيون يفترق الحبيبان دون أن يتزاوجا . وها نحن نرى أن الخاتمة تكاد تكون واحدة فيما لو تم بينهما الزواج .

وإنى لأذكر — وكأنى بهذا الحديث قد وقع بالأمس — يوم التقينا لأول مرة تحت شجرة التُّوت الوارفة ، فقالت لى بصوت دامع ، وقد

تاهت عيناها كأنما انحصرتا فى الغيب ، وأتُرى يبقى حبنا إلى الأبد ! إن قلبي يحدثنى — وأود أن لا أصدق — أن ستفرق بيننا الأيام » .

فجمدتُ فى مكاني ، وقد غشيتْنى سحابةٌ من الحزن لا أعرف مأتاها . وكان حبُّنا الموفَّق يبعث فى نفسى ما يشبه اليقينَ بأن يد الدهر لا يمكن أن تمتد إليه ، وأن القدر قد خلع عليه من دون الكائنات مزية الخلود . ولكن ثمة إحساسٌ خفيٌّ كان ينحدر إلىّ من أعماق هذا اليقين وينبؤنى بأن الأيام تخبيء لنا ما ترتعد منه الفرائص ، فما يلبث أن يضطرب اطمئنانى ويساورنى الخوفُ والقلق .

وتعاقبتْ الأيام ، ومضينا نسترسل فى أحلامنا غير آبهين بما يبيّته لنا المستقبل . وانقادت لنا

الظروف ، ولم يصطدم حبُّنا بصعوبة تُذكر . ثم بلغ أقصى مناه بالزواج ، ولكنه لم يكد يستقر له ذلك حتي أخذ يحتضر شيئا فشيئاً إلى أن شاهدناه بأعيننا يموت . فأذا بهذا الحب الجارف لم يكن إلا موجة عارضة من موجات الشعور ، مرَّتْ بالقلب ولبثت به إلى حين ثم اختفت كما تختفي الأمواج فى اليم .

إذا كان ثَمَّةَ شيء فى الحياة دائم فأن الحب يدوم . اختلفت الأسباب والنتائج واحدة .

ديسمبر سنة ١٩٢٣

نمرة الصحيفة	نمرة السطر مع احتساب الاسطر التى بها الارقام والعناوين	خطأ	صواب
٨	١	فِىَ	فىٌّ
٩	٤	قبلتُه	قُبْلتِه
٩	٤	ونارُها	ونارِها
٩	٨	برهـــةً	برهةٌ
١٠	٤	فتبقين	فتبقَىْ
٢٥	١٢	حيالُك	حيالَك
٢٨	٥	فللأنس	فَلأَنْسَ
٣١	١٢	اذْ	أذنى
٤٢	١١	مسٌ	مسٌّ
٧٩	٥	المحبون	المحبّين
١٣٩	٨	تحبُّا	تحبُّها
٦٨	٩	فكانه	فكأنه
١٢٥	١	نحويه	تحيه